المكتبة الثانية للأسرة

مختصر

صيد الخاطر

للإمام الحافظ المفسِّر

أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

اختصره

د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك

كلية التربية - جامعة الملك سعود



مدار الوطن للنشر



الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢٩هـ



الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - ٢ كم غرب أسواق المجد

الرياض : الملز / ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) - فاكس : ٤٧٢٣٩٤١
السويدي ت ٤٢٦٧١٧٧ فاكس ٤٢٦٧٣٧٧ فرع جدة ت ٠٢٦٨٧٠٦٧٩ فاكس ٠٢٦٨١٧٣٨٦
مندوب الرياض : ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦ - مندوب الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
مندوب الشرقية والدمام : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ مندوب الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
مندوب الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨
مندوب التوزيع الخيري للمنطقتين الجنوبية والشرقية : ٠٥٠٨٣٩٩٨٥٧
مندوب التوزيع الخيري لباقي مناطق المملكة : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
لطلبات الجهات الحكومية : ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

الموقع على الإنترنت : www.madar-alwatan.com
البريد الإلكتروني : pop@dar-alwatan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المختصر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، أما بعد..

فما من شك أن الأسرة هي نواة كل مجتمع وقلبه النابض، وأساس نهضته وازدهاره أن أُحسن رعايتها، أو تخلفه وانكماشه إن أُسيء رعايتها.

ومن هنا توجهت كافة الجهود الرسمية وغير الرسمية لعلاج مشكلات الأسرة، وتذليل العقبات والصعاب التي تواجهها.

وإسهامًا منا في إعداد أسرة مؤمنة متماسكة قادرة على مواجهة التحديات، كان هذا الإصدار «**المكتبة الثانية للأسرة**».

وقد دفعنا إلى المسارعة في إخراج هذا الإصدار تلقي القراء للمكتبة الأولى للأسرة بالرضى والقبول وذلك من خلال الرسائل الكثيرة التي وصلتنا، وازدياد الطلب عليها، ورغبة الكثيرين من القراء والمتبرعين في الاستمرار على هذا النهج.

ويضم هذا الإصدار من الكتب ما يلي:

١- مختصر «**الفصول في سيرة الرسول**» **لابن كثير**.

٢- مختصر «**الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب**» **لابن القيم**.

٣- مختصر «**جامع العلوم والحكم**» **لابن رجب**.

٤- مختصر «**صيد الخاطر**» **لابن الجوزي**.

٥- مختصر «**لطائف المعارف**» **لابن رجب**.

٦- مختصر «**كتاب الكبائر**» **للذهبي**.

إن الهدف من هذا الإصدار والذي قبله هو تقوية الوازع الديني في نفوس أفراد الأسرة، وصولًا إلى تعظيم الله تعالى ومحبته والسعي في مرضاته واجتناب معاصيه.

ولا شك أن هذا الهدف يسهم في علاج كثير من مشكلاتنا الأسرية والاجتماعية من كافة الجوانب: الاعتقادية والتعبدية، أو الأمنية، أو الاجتماعية والأخلاقية، أو الاقتصادية.

فإذا قوى الإيمان وصحّت عقائد الناس، اتجهوا إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، وابتعدوا عن الشرك كبيره وصغيره، وعن البدع والضلالات التي لا أصل لها.

وعلى **الجانب الأمني**، نجد أن أفراد الأسرة الذين امتلأت قلوبهم بمحبة الله، هم أكثر الناس حفاظًا على أمن البلاد والعباد، وأبعد الناس عن الإرهاب والإفساد في الأرض وترويع الآمنين، فلا يتساهلون بدماء المسلمين وأهل الذمة من المعاهدين والمستأمنين، ولا يتجاوزون حدود الله عزَّ وجلَّ بارتكاب الجرائم التي تخلُّ بالشرف والمروءة والأمانة.

وعلى **الجانب الاجتماعي والأخلاقي**، نجد أن تقوية الوازع الديني يسهم في إصلاح أوضاع الأسرة الاجتماعية، فيسارع أفرادها إلى تأدية ما عليهم من حقوق، فيختفي بذلك عقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ويسود حسن العشرة بين الزوجين مكان الخلافات الدائمة، ويتعامل الناس فيما بينهم بمكارم الأخلاق، ويسارعوا إلى المشاركة في الأنشطة الاجتماعية التي تحفظ المجتمعات، مثل رعاية الأيتام والأرامل والمعاقين والمسنين وأصحاب الاحتياجات الخاصة وغيرهم.

وعلى **الجانب الاقتصادي**، نجد أنه إذا قوي الإيمان وثبت تعظيم الله في النفوس، أثَّر ذلك في صدق التعامل بين الناس، وإتقان العمل، والانتهاء عن أكل الربا، وترك الاحتكار، والكف عن رفع أسعار السلع دون سبب، ورأينا التوسط في الإنفاق والاستهلاك والبُعد عن الإسراف والتبذير، والمسارعة في حفظ حقوق المسلمين وغير المسلمين.

وفي الختام أقدم الشكر الجزيل للقراء الكرام والإخوة المتبرعين ولكل من ساهم ودعم وشارك في إنجاح هذا العمل، وأسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يكتب له القبول أنه خير مسؤول وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك
كلية التربية – جامعة الملك سعود
dralmazyad@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمدُ لله حمدًا يبلغُ رضاه، وصلَّى الله على أشرفِ مَنِ اجتباه، وعلى مَنْ صاحبَهُ ووالاه، وسلَّم تسليمًا لا يُدْرَكُ مُنْتَهاه.

لما كانتِ الخواطر تَجولُ في تَصَفُّحِ أشياءَ تَعْرِضُ لها ثم تُعْرِضُ عنها فتذهبُ؛ كان مِن أولى الأمورِ حفظُ ما يَخْطُرُ لكيلا يُنْسى، وقد قال عليه الصلاةُ والسلام: «**قَيِّدوا العلمَ بالكتابةِ**»[1].

وكم قد خطر لي شيءٌ، فأتشاغلُ عن إثباتِهِ، فيذهبُ، فأتأسَّفُ عليه!

ورأيتُ مِن نفسي أنني كُلَّما فتحتُ بَصَرَ التَّفَكُّرِ؛ سَنَحَ[2] له من عجائبِ الغيبِ ما لم يكنْ في حسابٍ، فانثالَ عليه[3] من كثيبِ التَّفْهيمِ ما لا يجوزُ التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكتابَ قيدًا لصيدِ الخاطرِ.

واللهُ وليُّ النفعِ؛ إنه قريبٌ مجيبٌ.

○○○○○

---

(١) الدارمي (٤٩٧).

(٢) سنح: عرض.

(٣) انثال عليه: اجتمع وتتابع.

الغفلة واليقظة

قد يَعْرِضُ عند سماعِ المواعظِ للسامعِ يَقَظَةٌ؛ فإذا انفصلَ عن مجلسِ الذِّكْرِ؛ عادتِ القسوةُ والغفلةُ!

فتدبرتُ السببَ في ذلك، فعرفتُه، ثم رأيتُ الناس يتفاوتون في ذلك:

فالحالةُ العامةُ أنَّ القلبَ لا يكونُ على صفتِه من اليَقَظَةِ عند سماعِ الموعظةِ وبعدَها؛ لسببينِ:

* **أحدهما**: أن المواعظَ كالسِّياطِ، والسِّياطُ لا تُؤلـمُ بعد انقضائِها إيلامَها وقتَ وقوعِها.

* **والثاني**: أن حالةَ سماعِ المواعظِ يكونُ الإنسانُ فيها مُزاحَ العِلَّةِ، قد تخلَّى بجسمِه وفكرِه عن أسبابِ الدنيا، وأنصتَ بحضورِ قلبِهِ؛ فإذا عاد إلى الشواغلِ؛ اجتذبَتْه بآفاتِها؛ فكيفَ يَصِحُّ أن يكونَ كما كان؟!

وهذه حالةٌ تَعُمُّ الخَلْقَ، إلَّا أن أربابَ اليقظةِ يتفاوتونَ في بقاءِ الأثرِ.

* فمنهم مَنْ يَعْزِمُ بلا تردُّدٍ، ويمضي من غيرِ التفاتٍ؛ فلو توقَّف بهم رَكْبُ الطبعِ؛ لَضَجُّوا؛ كما قال حنظلةُ عن نفسِه: نافَقَ حنظلة[١].

* ومنهم أقوامٌ يميلُ بهم الطبعُ إلى الغفلةِ أحيانًا، ويدعوهم ما تقدَّم من المواعظِ إلى العملِ أحيانًا؛ فهم كالسُّنبلةِ تُميلها الرياحُ.

وأقوامٌ لا يؤثِّر فيهم إلَّا بمقدارِ سماعِه؛ كماءٍ دَحْرَجْتَهُ على صفوانٍ[٢].

○○○○○

فوائدُ النظرِ في العواقب

مَنْ عايَنَ بعينِ بصيرتِه تَناهِيَ الأمورِ في بداياتِها؛ نال خيرَها، ونجا من شرِّها.

ومَنْ لم يَرَ العواقبَ؛ غَلَبَ عليه الحِسُّ، فعاد عليه بالألمِ ما طَلَبَ منه السلامةَ، وبالنَّصَبِ ما رجا منه الراحةَ.

وبيانُ هذا في المستقبلِ يتبيَّنُ بِذِكْرِ الماضي: وهو أنك لا تَخْلو أن تكونَ عصيتَ اللهَ في عُمُرِك أو أطعتَه؛ فأين لَذَّةُ معصيتِك؟! وأين تَعَبُ طاعتِك؟! هيهاتَ؛ رحل كلٌّ بما فيه!

---

(١) مسلم (٢٧٥٠).

(٢) صفوان: صخرة ملساء.

فليت الذنوبَ إذا تخلَّتْ خلَّتِ!

وأزيدكُ في هذا بيانًا: مَثِّلْ ساعةَ الموتِ، وانظرْ إلى مرارةِ الحَسَراتِ على التَّفْريطِ، ولا أقولُ: كيف تَغْلِبُ حلاوةَ اللَّذَّاتِ؛ لأن حلاوةَ اللَّذَّاتِ استحالتْ حنظلًا، فبَقِيَتْ مرارةُ الأسى بلا مقاومٍ.

أَتُراك ما علمتَ أنَّ الأمرَ بعواقِبه؟!

فراقبِ العواقبَ تَسْلَمْ، ولا تَمِلْ مع هوى الحسِّ فتندمْ.

○○○○○

أعجبُ العجائبِ

مَنْ تفكَّر في عواقبِ الدُّنيا؛ أخذَ الحذَرَ، ومَن أيقنَ بطولِ الطريقِ؛ تأهَّبَ للسفرِ.

ما أعجبَ أمرَك يا من يوقِنُ بأمرٍ ثم ينساه، ويتحقَّقُ ضررَ حالٍ ثم يغشاه، وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه!

تغلِبُك نفسُك على ما تظنُّ، ولا تغلِبُها على ما تستيقنُ!

أعجبُ العجائبِ: سرورُك بغرورِك، وسَهْوُك في لَهْوِك عمّا قد خُبِّئَ لك! تغترُّ بصحتِك وتنسى دُنُوَّ السَّقَمِ، وتفرحُ بعافيتِكَ غافلًا عن قُرْبِ الألمِ! لقد أراك مصرعُ غيرِكَ مصرَعَك، وأبدى مضجَعُ سواك قبل المماتِ مضجَعَك! وقد شَغَلَكَ نَيْلُ لَذّاتِك عن ذِكْرِ خَرابِ ذاتِك.

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بأَخْبارِ مَنْ مَضَى ... ولَمْ تَرَ في الباقِينَ ما يَصْنَعُ الدَّهْرُ

فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيارُهُم ... مَحاها مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ والقَبْرُ

○○○○○

تجنب مواضع الفتن

مَنْ **قاربَ الفتنةَ**؛ بَعُدت عنه السلامةُ، ومن ادَّعى الصبرَ؛ وُكِلَ إلى نفسِه، وربَّ نظرةٍ لم تُناظَرْ[1]، وأحقُّ الأشياءِ بالضَّبْطِ والقَهْرِ اللسانُ والعينُ.

(١) لم تناظر: لم يُجعل لها نظيرًا وإنما عوقب صاحبها بها على الفور.

فإياك إياك أن تغترَّ بعَزْمِك على ترك الهوى؛ مع مقاربةِ الفتنةِ؛ فإن الهوى مكايدٌ!
وكم مِن شُجاعٍ في صفِّ الحربِ اغتيلَ، فأتاه ما لم يحتسبْ ممَّنْ يأنفُ النظرَ إليه!

○○○○○

أعظم العقوبة

أعظمُ المعاقبةِ أنْ لا يُحِسَّ المعاقَبُ بالعقوبةِ!
وأشدُّ من ذلك أن يَقَعَ السرورُ بما هو عقوبةٌ؛ كالفرحِ بالمالِ الحرامِ، والتمكُّنِ من الذنوبِ!
ومَنْ هذه حالُهُ لا يفوزُ بطاعةٍ.

○○○○○

علامة كمال العقل

من علامة كمالِ العقل علوُّ الهِمَّةِ، والراضي بالدُّونِ دنيٌّ.

وَلَـمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القادِرينَ على التَّمـامِ

○○○○○

في وجوبِ أخذِ العُدَّةِ للرحيل

الواجبُ على العاقلِ أخذُ العُدَّةِ لرحيلِهِ؛ فإنه لا يعلمُ متى يَفْجَؤُهُ أمرُ ربِّه؟ ولا يدري متى يُسْتَدْعَى؟
وإني رأيتُ خلقًا كثيرًا غرَّهم الشبابُ، ونَسُوا فَقْدَ الأقرانِ، وألْـهاهم طولُ الأملِ.
فالعاقلُ مَن أعطَى كلَّ لحظةٍ حقَّها من الواجبِ عليه؛ فإنْ بَغَتَهُ الموتُ؛ رُئِيَ مستعدًّا، وإن نال الأملَ؛ ازدادَ خيرًا.

○○○○○

أسبابُ العقوباتِ

خَطَرَتْ لي فكرةٌ فيما يَجْري على كثيرٍ من العالمِ مِن المصائبِ الشديدةِ والبلايا العظيمةِ التي تتناهى إلى نهاية الصعوبةِ!

فقلت: سبحانَ الله! إن اللهَ أكرمُ الأكرمينَ، والكرمُ يوجبُ المسامحةَ؛ فما وجْهُ هذه المعاقبةِ؟! فتفكَّرْتُ؟!

فرأيتُ كثيرًا من الناسِ في وجودِهم كالعَدَم، لا يتصفَّحون أدلَّة الوَحْدانيَّةِ، ولا ينظُرون في أوامرِ الله تعالى ونواهيه، بل يَجْرونَ على عاداتِهم كالبَهائمِ؛ فإن وافق الشرعُ مرادَهم، وإلَّا؛ فَمُعَوَّلُهم على أغراضِهم! وبعدَ حُصولِ الدينارِ لا يبالونَ؛ أمِنْ حلالٍ كان أم من حرامٍ؟ وإن سَهُلت عليهم الصلاةُ؛ فعلوها، وإن لم تَسْهُل؛ تركوها! وفيهم مَن يبارِزُ بالذنوبِ العظيمةِ؛ وربما قويتْ معرفة عالمٍ منهم وتفاقمتْ ذنوبُه!!

فعلمتُ أنَّ العقوباتِ -وإنْ عَظُمَتْ- دونَ إجرامِهم.

فإذا وقعتْ عقوبةٌ لِتُمَحِّصَ ذنبًا؛ صاح مستغيثُهم: تُرى هذا بأيِّ ذنبٍ؟! وينسى ما قد كان مما تَتزَلْزَل الأرضُ لبعضِهِ!

وقد يُهان الشيخ في كِبَرِه حتى ترحَمَهُ القلوبُ، ولا يُدرَى أنَّ ذلك لإهمالِه حقَّ الله تعالى في شبابِه!

فمتى رأيتَ مُعَاقَبًا؛ فاعلم أنه لذنوبٍ.

○○○○○

في تصفيةِ الأعمالِ

مَنْ أحبَّ تصفيةَ الأحوالِ؛ فليجتهدْ في تصفيةِ الأعمال.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

قال أبو سليمان الداراني: مَن صَفَّى؛ صُفِّيَ له، ومَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عليه، ومنْ أحسنَ في ليلِهِ؛ كُفِيَ في نهاره، ومن أحسن في نهاره؛ كُفِيَ في ليلِه.

وكان شيخٌ يدورُ في المجالس ويقولُ: مَنْ سَرَّهُ أن تدومَ له العافيةُ؛ فليتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ.

وكان الفُضيل بن عِياض يقولُ: إنِّي لأَعْصِي اللهَ فأعرفُ ذلك في خُلُقِ دابَّتِي وجارِيَتي.

واعلم – وفَّقَك الله – أنه لا يُحِسُّ بضربةٍ مُبَنَّجٌ، وإنما يَعْرِفُ الزيادةَ من النُّقصانِ المحاسِبُ لنفسِه.

ومتى رأيتَ تَكْدِيرًا في حالٍ؛ فاذكرْ نِعْمَةً ما شُكِرَتْ أو زَلَّةً قد فُعِلَتْ.

واحذر مِنْ نِفَارِ النِّعمِ ومُفَاجأةِ النِّقَمِ، ولا تَغْتَرِرْ بِسَعَةِ بساطِ الحِلْمِ؛ فربَّما عُجِّل انقباضُه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكان أبو علي الرُّوذبَاريُّ يقول: من الاغترارِ أن تسيءَ، فَيُحْسِنَ إليك، فَتَتْرُكَ التوبةَ توهُّمًا أنك تُسامَحُ في الهفواتِ.

○○○○○

في قيمةِ الوقتِ

ينبغي للإنسانِ أن يعرِفَ شَرَفَ زمانه وقَدْرَ وقتِه؛ فلا يُضيِّعُ منه لحظةً في غيرِ قُرْبةٍ، ويقدِّمَ الأفضلَ فالأفضلَ من القولِ والعملِ.

ولتكنْ نيتُهُ في الخيرِ قائمةً مِن غيرِ فُتورٍ بما لا يَعْجِزُ عنه البدنُ من العملِ.

وقد كان جماعةٌ من السلفِ يبادرون اللحظات:

فنُقِلَ عن عامرِ بنِ عبدِ قيسٍ أن رجلًا قال له: كلِّمْني! فقال له: أمسكِ الشمسَ!

وقال ابنُ ثابتٍ البُنانيِّ: ذهبتُ ألقِّنُ أبي، فقال: يا بنيَّ! دَعْني؛ فإني في وِرْدِي السادسِ.

ودخلوا على بعضِ السلفِ عند موتِه وهو يصلِّي، فقيل له[1]؟ فقال: الآن تُطْوى صحيفتي.

فإذا علِمَ الإنسانُ – وإنْ بالغَ في الجِدِّ – بأنَّ الموتَ يقطعهُ عن العملِ؛ عَمِلَ في حياتِه ما يدومُ له أجرُه بعد موتِه: فإنْ كانَ له شيءٌ من الدُّنيا؛ وقفَ وقفًا، وغَرَسَ غرسًا، وأجرى نَهَرًا، ويسعى في تحصيلِ ذُرِّيَّةٍ تَذْكُرُ اللهَ بعدَه فيكونُ الأجرُ له، أو أن يصنِّفَ كتابًا في العلمِ؛ فإن تصنيفَ العالمِ ولدُه المخلَّدُ، وأن يكونَ عاملًا بالخيرِ عالـمًا فيه، فَيُنْقَلَ من فِعْلِه ما يَقْتَدي الغيرُ به؛ فذلك الذي لم يمتْ.

قد ماتَ قومٌ وهم في الناسِ أحياءُ.

---

(١) أي لا موه وطلبوا منه أن يستريح.

الجزاء من جنس العمل

مَنْ تأمَّلَ أفعالَ الباريءِ سبحانَه؛ رآها على قانونِ العدلِ، وشاهَدَ الجزاءَ مُرْصَدًا للمُجازى، ولو بعد حينٍ؛ فلا ينبغي أن يَغْتَرَّ مُسامَحٌ؛ فالجزاءُ قد يتأخرُ.

ومن أقبحِ الذُّنوبِ التي قد أُعِدَّ لها الجزاءُ العظيمُ الإصرارُ على الذنبِ، ثم يصانعُ صاحبُه باستغفارٍ وصلاةٍ وتعبُّدٍ، وعنده أن المصانعةَ تنفعُ!

وأعظمُ الخلقِ اغترارًا مَنْ أتى ما يكرَهُهُ اللهُ، وطلبَ منه ما يحبُّه هو؛ كما رُوي في الحديثِ: «والعاجِزُ مَن أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني»(١).

ومما ينبغي للعاقل أن يترصَّدَ وقوعَ الجزاء:

فإنَّ ابن سيرين قال: عَيَّرتُ رجلًا فقلت: يا مفلسُ! فأفلستُ بعد أربعين سنةً.

وقال ابن الجلاء: رآني شيخٌ لي وأنا أنظرُ إلى أمردَ! فقال: ما هذا؟! لَتَجِدَنَّ غِبَّها. فَنُسِّيتُ القرآنَ بعد أربعينَ سنةً.

وبالضدِّ من هذا؛ كلُّ مَن عَمِلَ خيرًا أو صَحَّحَ نيةً؛ فلينتظِرْ جزاءَها الحسنَ، وإن امتدَّت المدةُ. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف ٩٠].

فليعلمِ العاقلُ أنَّ ميزان العدلِ لا يُحابي.

○○○○○

حوادِثُ الدنيا والآخرةِ

تأمَّلْتُ أمرَ الدنيا والآخرةِ، فوجدتُ حوادثَ الدُّنيا حِسِّيَّةً طَبْعِيَّةً وحوادثَ الآخرةِ إيمانيَّةً يقينيَّةً. والحسياتُ أقوى جذبًا لمن لم يقْوَ علمُه ويقينُه.

والحوادثُ إنما تبقى بكثرة أسبابها: فمُخالَطةُ الناسِ، ورؤيةُ المستَحْسناتِ، والتعرُّضُ بالملذوذاتِ؛ يقوِّي حوادثَ الحسِّ. والعُزْلَةُ والفِكْرُ، والنَّظَرُ في العلمِ؛ يقوِّي حوادثَ الآخرة.

---

(١) أحمد (١٦٦٧٤)؛ والترمذي (٢٤٥٩)؛ وابن ماجه (٤٢٦٠).

وَيَبِينُ هذا بأنَّ الإنسانَ إذا خرجَ يمشي في الأسواقِ ويُبْصِرُ زينةَ الدنيا، ثم دخل إلى المقابرِ فتفكَّر وَرَقَّ قلبُه؛ فإنَّه يُحِسُّ بين الحالتين فرقًا بيِّنًا، وسببُ ذلك التعرُّض بأسبابِ الحوادثِ.

فعليك بالعُزلةِ والذِّكْرِ والنظرِ في العلم؛ فإن العزلةَ حِمْيَةٌ، والفكرَ والعلمَ أدويةٌ، والدواءُ مع التخليطِ لا ينفعُ، وقد تمكَّنَتْ منك أخلاطُ المخالطةِ للخَلْقِ والتخليطِ في الأفعالِ؛ فليس لك دواءٌ إلَّا ما وصفتُ لك.

فأما إذا خالطتَ الخلقَ وتعرضتَ للشَّهَواتِ، ثم رُمْتَ صلاحَ القلبِ؛ رُمْتَ الممتنعَ.

○○○○○

العزلة عن الشر لا عن الخير

ما زالت نفسي تُنازعني – بما يوجِبُه مجلسُ الوعظ وتوبةُ التائبينَ ورؤيةُ الزاهدين – إلى الزُّهْدِ والانقطاعِ عن الخَلْقِ والانفرادِ بالآخرة.

فتأملتُ ذلك، فوجدتُ عمومَه من الشيطانِ:

فإنَّ الشيطانَ يَرى أنَّه لا يخلو لي مجلسٌ من خَلْقٍ لا يُحْصَونَ، يبكونَ ويَنْدُبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعةٌ يتوبون ويقطَعون شُعور الصِّبا، ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثرُ من مائةٍ، وعمومُهم صبيانٌ قد نُشِّئوا على اللَّعِبِ والانهماكِ في المعاصي.

فكأنَّ الشيطانَ – لِبُعْدِ غَوْرِه[1] في الشرِّ – رآني أجتذِبُ إليَّ مَنْ أجتذبُ منه، فأراد أن يَشْغَلَني عن ذلك بما يُزَخْرِفُه؛ لِيَخْلُوَ هو بِمَنْ أجتذبُهُ من يدِه.

ولقد حسَّن ليَ الانقطاعَ عن المجالسِ، وقال: لا يخلو مِن تصَنُّعٍ للخَلْقِ!

فقلت: أمَّا زخرفةُ الألفاظِ وتزويقُها وإخراجُ المعنى من مُسْتَحْسَنِ العبارةِ؛ فضيلةٌ لا رذيلةٌ، وأما أن أقصِدَ الناسَ بما لا يجوزُ في الشَّرْعِ؛ فمعاذَ الله.

وأمَّا الانقطاعُ؛ فينبغي أن تكونَ العُزْلَةُ عن الشرِّ لا عَنِ الخيرِ، والعُزلةُ عن الشرِّ واجبةٌ عل كلِّ حالٍ.

وأمَّا تعليمُ الطالبين وهدايةُ المريدينَ؛ فإنه عبادةُ العالم.

---

(١) لبعد غوره: أي لدهائه وتمكنه من الشر.

وإنما تميلُ النفسُ إلى ما يزخرِفُهُ الشيطانُ لمعنيين:

* أحدُهما: حبُّ البَطالةِ؛ لأنَّ الانقطاعَ عندها أسهلُ.

* والثاني: حبُّ الـمِدْحَةِ؛ فإنها إذا توسَّمتْ بالزُّهْدِ؛ كان مَيْلُ العوامِّ إليها أكثر.

ooooo

بين العلم والعمل

تأملتُ المرادَ من الـخَلْق: فإذا هو الذُّلُّ واعتقادُ التقصيرِ والعَجْزِ.

وَمَثَّلْتُ العلماءَ والزُّهَّادَ العاملين صِنْفَين: فأقمتُ في صفِّ العلماء: مالكًا وسفيانَ، وأبا حنيفةَ، والشافعيَّ، وأحمدَ. وفي صفِّ العُبَّادِ: مالكَ بنَ دينارٍ، ورابعةَ، ومعروفًا الكَرْخِيَّ، وبِشْرَ بنَ الحارثِ.

فكلَّما جَدَّ العُبَّادُ في العبادةِ؛ صاح بهم لسانُ الحالِ: عباداتُكم لا يتعدَّاكُم نفعُها، وإنما يتعدَّى نفعُ العلماءِ، وهُم وَرَثَةُ الأنبياءِ، وخُلفاءُ في الأرضِ، وهم الذين عليهم الـمُعَوَّلُ ولهم الفضلُ إذا أطرَقوا وانْكَسَروا وعَلِموا صِدْقَ تلك الحالِ... وجاء مالكُ بنُ دينارٍ إلى الحسنِ يتعلَّم منه، ويقولُ: الحسنُ أستاذُنا.

وإذا رأى العلماءُ أنَّ لهم بالعلمِ فضلًا؛ صاح لسانُ الحالِ بالعلماءِ: وهل المرادُ من العلمِ إلَّا العملُ؟!

وقال أحمدُ بن حنبل: وهل يُراد بالعلمِ إلَّا ما وصلَ إليه معروفٌ؟!

وقالتْ أمُّ الدرداءِ لرجلٍ: هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا. قالت: فَلِمَ تَسْتَكْثِرُ من حجةِ الله عليك؟!

فما يبلغُ من الكُلِّ قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وجاء سفيانُ إلى رابعةَ، فجلسَ بين يَدَيْها ينتفعُ بكلامها.

فدلَّ العلماءَ العلمُ على أنَّ المقصودَ منه العملُ به، وأنه آلةٌ، فانكسَروا واعترفوا بالتَّقْصيرِ.

فحصل الكلُّ على الاعترافِ والذُّلِّ، فاسْتَخْرَجَتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العُبودِيَّةِ باعترافِهم؛ فذلك هوَ المقصودُ من التَّكْلِيفِ.

مقاصد النكاح

تأملتُ في فوائدِ النّكاحِ ومعانيه وموضوعِهِ، فرأيتُ أنَّ الأصلَ الأكبر في وَضْعِهِ وجودُ النسل؛ لأنَّ هذا الحيوان لا يزالُ يتحلَّل، ثم يُخْلِفُ المتحلِّلَ الغذاءُ، ثم يتحلَّلُ من الأجزاءِ الأصليَّةِ ما لا يُخْلِفُهُ شيءٌ؛ فإذا لم يكنْ بدٌّ من فَنَائِهِ، وكان المرادُ امتدادَ أزمان الدُّنيا؛ جُعل النسلُ خَلَفًا عن الأصلِ.

ولما كانتْ صورةُ النّكاحِ تأباها النفوسُ الشريفةُ؛ مِن كَشْفِ العَوْرَةِ، وملاقاةِ ما لا يُسْتَحْسَنُ لنفسِه؛ جُعِلَتِ الشهوةُ تحثُّ عليه؛ لِيَحْصُلَ المقصودُ.

ثم رأيتُ هذا المقصودَ الأصليَّ يتبعُهُ شيءٌ آخرُ، وهذا استفراغُ هذا الماء الذي يؤذي دوامُ احتقانِهِ؛ فإذا زاد اجتماعُ المنيِّ؛ أقلقَ على نحو إقلاقِ البَوْلِ للحاقنِ؛ إلَّا أنَّ إقلاقَه من حيثُ المعنى أكثرُ من إقلاقِ البَوْلِ من حيثُ الصُّورةُ، فتوجبُ كثرةُ اجتماعِهِ وطولُ احْتِباسِهِ أمراضًا صعبةً.

فَمَنْ أراد نَجابَةَ الولدِ وقضاءَ الوَطَر؛ فلْيَتَخَيَّرِ المنكوحَ:

إن كان زوجةً؛ فلينظرْ إليها؛ فإذا وقعتْ في نفسِه، فليتزوجْها، وقد نَصَّ أحمدُ على جوازِ أن يُبْصِرَ الرجلُ من المرأة التي يريدُ نِكاحَها ما هو عورةٌ؛ يشير إلى ما يزيدُ على الوجْهِ.

ثم ينبغي للمتخيِّر أن يتفرَّسَ[1] في الأخلاقِ؛ فإنها من الخفيِّ، وإن الصورةَ إذا خَلَتْ من المعنى؛ كانت كخضراءِ الدِّمَن[2]، ونجابةُ الوَلَدِ مقصودةٌ.

فمن قَدَرَ على امرأةٍ صالحةٍ في الصُّورةِ والمعنى؛ فلْيُغْمِضْ عن عوراتِها، ولتجتهدْ هي في مَراضيه؛ من غير قربٍ يُمَلُّ ولا بُعْدٍ يُنْسِي، ولْتُقْدِمْ على التَّصَنُّعِ له؛ يَحْصُلِ الغرضانِ منها؛ الولدُ وقضاءُ الوَطَرِ، فإذا قَدَرَ على الاستكثارِ، فأضافَ إليها سِواها، عالـمًا أنه بذلك يبلغُ الغرضَ الذي يُفْرِغُ قلبَه زيادةَ تفريغ؛ كان أفضلَ لحالِه.

فإن خاف من وجودِ الغَيْرَةِ ما يَشْغَلُ القلبَ الذي قد اهتَمَمْنا بجمْعِ هِمَّته، أو

(١) يتفرّس: ينظر ويتثبت.

(٢) خضراء الدمن: النبات الأخضر الحسن في الأرض الملبّدة بالبول والبعر.

خافَ وجودَ مُسْتَحْسَنَةٍ تَشْغَلُ قلبَه عن ذِكْرِ الآخرةِ، أو تطلُبُ منه ما يوجبُ خروجَه عن الورعِ؛ فحسبُهُ واحدةٌ.

ونكاحُ المرأةِ المحبوبةِ يَسْتَفْرِغُ الماءَ المجتمعَ، فيوجِبُ نجابةَ الولدِ وتمامَه، وقضاءَ الوَطَرِ بكمالِهِ.

○○○○○

حلاوةُ الطاعةِ وشؤمُ المعصيةِ

كلُّ شيءٍ خَلَقَ الله تعالى في الدنيا؛ فهو أُنموذَجُ[1] ما في الآخرة، وكلُّ شيء يجري فيها أنموذجُ ما يجري في الآخرة.

فأما ما يجري في الدُّنيا؛ فكلُّ ظالمٍ معاقَبٌ في العاجلِ على ظُلمِه قبلَ الآجلِ، وكذلك كلُّ مذنبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما رأى العاصي سلامةَ بدنِه ومالِه، فظنَّ أنْ لا عقوبةَ، وغفلتُهُ عما عوقِبَ به عقوبةٌ.

وقد قال الحكماءُ: المعصيةُ بعد المعصيةِ عقابُ المعصيةِ، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنة.

وربما كان العقاب العاجل معنويًّا؛ كما قال بعضُ أحبارِ بني إسرائيلَ: يا ربّ! كم أعصِيكَ ولا تعاقِبُني! فقيل له: كم أعاقبُك وأنت لا تدري! أليس قد حَرَمْتُكَ حَلَاوَةَ مُناجاتي؟

فمَنْ تأمَّلَ هذا الجنسَ من المعاقبةِ؛ وَجَدَهُ بالمرصادِ، فربَّ شخصٍ أطلقَ بَصَرَهُ فحرمَهُ اللهُ اعتبارَ بصيرتِهِ، أو لسانَهُ فحرمَهُ الله صفاءَ قلبِه، أو آثر شُبهةً في مطعمِهِ فأظلم سِرُّه وحُرِم قيامَ الليل وحلاوةَ المناجاةِ... إلى غير ذلك؛ وهذا أمرٌ يعرفُه أهلُ محاسبةِ النفسِ.

وعلى ضدِّه يجدُ من يتَّقِي الله تعالى من حسنِ الجزاءِ على التَّقوى عاجلًا؛ فأما المقابلةُ الصريحةُ في الظاهر؛ فَقَلَّ أن تحتبسَ، ومن ذلك قول النبي ﷺ: **«إن العبدَ لَيُحْرَمُ**

---

(١) أنموذج: مثال.

الرِّزْقَ بالذنبِ يُصيبُه»[١]. ومثل هذا إذا تأمَّله ذو بصيرةٍ؛ رأى الجزاء، وفهم.

كما قال الفُضَيلُ: إني لأعصي اللهَ عزَّ وجلَّ فأعرفُ ذلك في خُلُقِ دابتي وجاريتي.

وعن أبي عثمان النيسابوريِّ: أنه انقطع شِسْعُ نعلِه في مُضِيِّه إلى الجمعةِ، فَتَعَوَّقَ لإصلاحِهِ ساعةً، ثم قال: ما انقطعَ إلَّا لأني ما اغتسلتُ غُسْلَ الـجُمعةِ[٢].

ولو أن شخصًا ترك معصيةً لأجلِ الله تعالى؛ لَرَأى ثمرةَ ذلك، وكذلك إذا فعل طاعةً.

ooooo

خبايا النفوسِ

نظرتُ في الأدلةِ على الحقِّ سبحانَه وتعالى، فوجدتُها أكثرَ من الرملِ، ورأيتُ من أعجبِها:

أنَّ الإنسانَ قد يُخْفِي ما لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ فيُظْهِرُهُ اللهُ سبحانَه عليه ولو بعدَ حينٍ، ويُنْطِقُ الألسنةَ به وإنْ لم يشاهِدْهُ الناسُ، ، وربما أوقعَ صاحبَه في آفة يفضحُهُ بها بين الخلقِ، فيكونُ جوابًا لكلِّ ما أخفى من الذّنوبِ، وذلك ليعلمَ الناسُ أن هنالك مَنْ يجازِي على الزَّلَل، ولا ينفعُ مِن قَدَرِهِ وقُدْرَتِهِ حجابٌ ولا استتارٌ، ولا يُضاعُ لديه عملٌ.

وكذلك يُخْفِي الإنسان الطاعةَ، فتظهرُ عليه، ويتحدَّثُ الناسُ بها وبأكثرَ منها، حتى إنهم لا يعرفونَ له ذنبًا ولا يذكُرونَه إلَّا بالمحاسنِ؛ ليُعْلَمَ أنَّ هنالك ربًّا لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ. وإنَّ قلوبَ الناس لَتَعْرِفُ حال الشخصِ وتحبُّه، أو تأباه وتذمُّه، أو تمدُحه وَفْقَ ما يتحقَّقُ بينه وبين الله تعالى؛ فإنه يكفيه كلَّ هَمٍّ، ويدفعُ عنه كلَّ شَرٍّ.

وما أصلحَ عبدٌ ما بينه وبين الخلقِ دونَ أنْ يَنْظُرَ إلى الحقِّ؛ إلَّا انْعَكَسَ مَقصُودُهُ، وعاد حامدهُ ذامًّا.

ooooo

---

(١) أحمد (٢١٨٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٢).

(٢) الآن قلّ من يفعل ذلك، وإنما يقال: فلان حسدني، فلان نظر إليَّ، ولا يكاد ينظر في أفعاله ومعاصيه.

لذةُ قهرِ الهوى

رأيتُ مَيْلَ النفسِ إلى الشَّهواتِ زائدًا في المقدارِ، حتى إنَّها إذا مالتْ؛ مالتْ بالقلبِ والعقلِ والذِّهْنِ؛ فلا يكادُ المرءُ يَنْتَفِعُ بشيءٍ من النُّصْحِ!

فَصِحْتُ بها يومًا وقد مالتْ بِكُلِّيَّتِها إلى شهوةٍ: وَيْحَكِ! قفي لحظةً؛ أُكَلِّمْكِ كلماتٍ، ثم افعلي ما بدا لكِ!

قالت: قلْ؛ أسمعْ.

قلت: قد تقرَّرَ قِلَّةُ مَيْلِكِ إلى المباحاتِ من الشَّهَواتِ، وأمَّا جُلُّ مَيْلِكِ؛ فإلى المحرَّماتِ، وأنا أكشِفُ لك عن الأمرينِ؛ فربما رأيت الحُلْوَيْنِ مُرَّيْنِ.

أما المباحاتُ مِن الشَّهَواتِ؛ فمطلَقَةٌ لك، ولكنَّ طريقَها صعبٌ: لأنَّ المالَ قد يعجزُ عنها، والكسبَ قد لا يُحَصِّلُ مُعْظَمَها، والوقتَ الشريفَ يذهبُ بذلك. ثم شُغْلُ القلبِ بها وقتَ التَّحْصيلِ، وفي حالةِ الحُصولِ، وبحَذَرِ الفواتِ. ثم يُنَغِّصُها[1] من النَّقْصِ ما لا يخفى على مميِّز: إن كان مَطْعَمًا؛ فالشِّبَعُ يُحْدِثُ آفاتٍ، وإن كان شخصًا؛ فالمللُ أو الفراقُ أو سوءُ الخُلُقِ، ثم ألذُّ النكاحِ أكثرُه إيهانًا للبدنِ.. إلى غير ذلك مما يطولُ شرحُه.

وأما المحرمات؛ فتشتملُ على ما أشرْنا إليه من المباحاتِ، وتزيدُ عليها بأنها آفةُ العِرْضِ، ومَظِنَّةُ عقابِ الدُّنيا وفضيحَتِها، وهناك وعيدُ الآخرةِ، ثم الجَزَعُ كلَّما ذَكَرَها التائبُ.

وفي قُوَّةِ قهرِ الهوى لَذَّةٌ تزيدُ على كلِّ لَذَّةٍ، ألا ترى إلى كلِّ مغلوبٍ بالهوى كيف يكونُ ذليلًا لأنه قُهِرَ؛ بخلافِ غَالبِ الهوى؛ فإنه يكونُ قَوِيَّ القلبِ عزيزًا لأنه قَهَر؟!

فالحذرَ الحذرَ من رؤية الـمُشْتَهى بعينِ الحُسْنِ كما يرى اللِّصُّ لَذَّةَ أخْذِ المال مِنَ الحِرْزِ ولا يرى بِعَيْنِ فِكْرِهِ القَطْعَ!

وليفتح الإنسانُ عينَ البصيرةِ؛ لِتَأَمُّلِ العواقبِ، واستحالةِ اللَّذَّةِ نَغْصةً، وانقلابِها عن كونِها لَذَّةً؛ إمَّا لمللٍ، أو لغيرِه من الآفاتِ، أو لانقطاعِها بامتناعِ الحبيبِ، فتكونُ المعصيةُ الأولى كلُقمةٍ تناولها جائعٌ، فما رَدَّتْ كَلَبَ الجوعِ[2]، بل شهَّتِ الطعام.

---

(١) ينغصها: يكدّرها.

(٢) كَلَب الجوع: أذاه وشره.

وليتذكرِ الإنسانُ لَذَّةَ قَهْرِ الهوى مع تأمُّلِ فوائِدِ الصبرِ عنه؛ فَمَنْ وُفِّقَ لذلك؛ كانتْ سلامتُه قريبةً منه.

ooooo

أحوالُ النفسِ

خطر لي خاطرٌ؛ والمجلسُ قد طابَ، والقلوبُ قد حضرتْ، والعيونُ جاريةٌ، والرؤوس مُطْرِقةٌ، والنفوسُ قد ندِمتْ على تفريطِها، والعزائمُ قد نهضتْ لإصلاحِ شؤونِها، وألسنةُ اللَّوْم تعملُ في الباطنِ على تضييعِ الحَزْمِ وتَرْكِ الحذرِ، فقلتُ لنفسي: ما بالُ هذه اليقظة لا تدومُ؟! فإني أرى النفسَ واليَقَظَةَ في المجلسِ متصادقَيْنِ متصافِيَيْنِ؛ فإذا قُمنا عن هذه التربةِ؛ وقعتِ الغُربةُ.

فتأملتُ ذلك، فرأيتُ أنَّ النفسَ ما تزالُ متيقِّظةً، والقلبَ ما يزالُ عارفًا؛ غير أن القواطعَ كثيرةٌ، والفِكْرُ الذي ينبغي استعمالُه في معرفةِ الله سبحانه وتعالى قد كَلَّ مما يُسْتَعْمَلُ في اجتلابِ الدُّنيا وتحصيلِ حوائجِ النفوسِ، والقلبُ منغمسٌ في ذلك، والبدنُ أسيرٌ مستخدَمٌ.

وبينما الفِكْرُ يجولُ في اجتلابِ الطعامِ والشرابِ والكِسْوَةِ، وينظرُ في صَدَدِ ذلك، وما يدَّخِرُه لِغَدِهِ وسَنَتِهِ؛ اهتمَّ بخروجِ الحدثِ وتشاغلَ بالطَّهارةِ، ثم اهتمَّ بخروجِ الفضلاتِ المؤذيةِ، ومنها المنيُّ فاحتاج إلى النِّكاحِ، فَعَلِمَ أنه لا يصِحُّ إلَّا باكتسابِ كَسْبِ الدنيا، فتفكَّرَ في ذلك وعمِلَ بمقتضاه، ثم جاء الولدُ، فاهتمَّ به وله، وإذا الفكرُ عاملٌ في أصولِ الدُّنيا وفروعِها.

فإذا حَضَرَ الإنسانُ المجلسَ؛ فإنه لا يحضُرُ جائعًا ولا حاقنًا[1]، بل يحضُرُه جامعًا لهِمَّتِه، ناسيًا ما كان من الدُّنيا على ذكرِه، فيخلو الوعظُ بالقلبِ، فيُذَكِّرُه بما أَلِفَ، ويجذِبُهُ بما عَرَفَ، فينهضُ عُمالُ القلبِ في زَوَارقِ عِرفانِه، فيُحضِرونَ النفسَ على بابِ المطالبةِ بالتَّفريطِ، ويؤاخِذُونَ الحسَّ بما مضى من العيوبِ، فتجري عيونُ النَّدَمِ، وتنعقدُ عزائمُ الاستدراكِ.

(١) حاقنًا: الحاقن: الذي احتبس بوله فتجمع.

ولو أنَّ هذه النفسَ خَلَتْ عن المعهوداتِ التي وَصَفْتُها؛ لتشاغلتْ بِخِدْمَةِ باريها، ولو وقعتْ في سَوْرَةِ حُبِّه؛ لاستوحَشَتْ عن الكُلِّ شُغلًا بِقُرْبه.

غير أني تَلَمَّحْتُ في هذه الحالةِ دقيقةً، وهي أنَّ النفس لو دامتْ لها اليَقَظَةُ؛ لوقعتْ فيما هو شرٌّ من فَوْتِ ما فاتَها، وهو العُجْبُ بحالها، والاحتقارُ لجِنْسِها! وربما تَرَقَّتْ بقوةِ عِلْمِها وعِرْفَانِها إلى دعوى قولها: لي، وعندي، وأستحق... فتَرَكَها في حَوْمَةِ ذنوبِها تتخبَّطُ؛ فإذا وقفتْ على الشاطئِ؛ قامتْ بحقِّ ذِلَّةِ العُبوديَّةِ، وذلك أولى لها.

وإلى هذا المعنى أشار الحديثُ الصحيحُ: «**لو لم تذْنِبُوا؛ لَذَهَبَ اللهُ بكم، وجاء بقومٍ يُذْنبونَ، فيستغفِرُونَ، فيَغفِرُ لهم**»[1].

ооооо

سُسْ نفسَك

تأملتُ جهادَ النفس، فرأيتُه أعظمَ الجهادِ، ورأيتُ خَلْقًا لا يفهمونَ معناه؛ لأنَّ فيهم مَنْ مَنَعَها حظوظَها على الإطلاق، وذلك غلطٌ من وجهين:

أحدهما: أنه رُبَّ مانعٍ لها شَهْوَةً أعطاها بالمنعِ أوفى منها: مثلُ أنْ يمنَعَها مباحًا، فيُشتَهَرَ بمنعِه إيَّاها ذلك، فترضى النفسُ بالمنع لأنها قد استبدلَتْ به المدحَ. وأخفى من ذلك أن يَرَى – بمنعِه إياها ما مَنَعَ – أنه قد فَضَلَ سوَاه مِمَّن لم يمنعْها ذلك.

وهذه دفائنُ تحتاج إلى مِنْقَاشِ فَهْمٍ يُخَلِّصُها.

والوجه الثاني: أننا قد كُلِّفْنا حِفْظَها، ومن أسبابِ حفظِها ميلُها إلى الأشياءِ التي تُقيمُها؛ فلا بدَّ من إعطائِها ما يُقيمُها، وأكثرُ ذلك أو كلُّه مما تشتهيه، ونحن كالوكلاءِ في حفظِها؛ لأنها ليستْ لنا، بل هي وديعةٌ عندَنا؛ فمنعُها حقوقَها على الإطلاقِ خطرٌ.

ثم رُبَّ شَدٍّ أوجبَ استرخاءً، ورُبَّ مُضَيِّقٍ على نفسِه فَرَّتْ منه فَصَعُبَ عليه تلافيها.

وإنما الجهادُ لها كجهادِ المريضِ العاقلِ؛ يحملُها على مكروهِها في تناولِ ما ترجو به العافيةَ، ويذوِّب في المرارةِ قليلًا من الحلاوةِ، ويتناولُ من الأغذيةِ مقدارَ ما يصفُه الطبيبُ، ولا تحمِلُه شهوتُهُ على موافقةِ غرضِها من مَطْعَمٍ ربما جرَّ جوعًا، ومن لُقمةٍ ربما

---

(١) مسلم (٢٧٤٩).

حَرَمَتْ لُقْماتٍ.

فكذلك المؤمنُ العاقل؛ لا يترك لجامَها، ولا يُهْمِلُ مِقْوَدَها، بل يُرخي لها في وقتٍ والطِّوَلُ[1] بيده؛ فما دامت على الجادَّة؛ لم يضايقْها في التضييقِ عليها فإذا رآها قد مالتْ؛ رَدَّها باللُّطفِ، فإنْ وَنَتْ وأبتْ؛ فبالعنفِ، ويحسِبُها في مقامِ المداراةِ كالزوجةِ التي مَبْنَى عقْلِها على الضَّعْف والقِلَّة؛ فهي تُدارَى عند نشوزِها بالوَعْظِ، فإن لم تَصْلُح؛ فبالهجرةِ، فإن لم تستقمْ؛ فبالضربِ، وليس في سياطِ التأديبِ أجودُ من سَوْطِ عَزْمٍ.

هذه مجاهدةٌ من حيثُ العملُ.

فأما من حيثُ وعظُها وتأنيبُها؛ فينبغي لمن رآها تسكنُ للخلق وتتعرضُ بالدناءةِ من الأخلاقِ أن يُعَرِّفَها تعظيمَ خالِقها لها، فيقولَ: ألستِ التي قال فيك: خلقتكِ بيديَّ، وأسجدتُ لكِ ملائكتي، وارتضاكِ للخلافةِ في أرضِه، وراسلَكِ، واقترضَ منكِ واشترى؟! فإن رآها تتكبَّرُ؛ **قال لها: هل أنتِ إلَّا قطرةٌ** من ماء مَهين، **تقتُلُك شَرْقَةٌ، وتُؤلِمُك بَقَّةٌ**؟! وإن رأى تَقْصِيرَها؛ عَرَّفها حقَّ الموالي على العبيدِ. وإن وَنَتْ[2] في العملِ؛ حدَّثها بجزيلِ الأجرِ. وإن مالتْ إلى الهوى؛ خوَّفها عظيمَ الوزرِ، ثم يحذِّرُها عاجلَ العقوبة الحسيَّةِ؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمعنويَّةِ؛ كقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فهذا جهادٌ بالقولِ، وذاك جهادٌ بالفعل.

○○○○○

أسبابُ تخلُّفِ إجابةِ الدعاءِ

رأيتُ من البلاءِ أنَّ المؤمنَ يدعو فلا يُجابُ، فيكَرِّرُ الدعاءَ، وتطولُ المدةُ، ولا يرى أثرًا للإجابةِ!

فينبغي له أن يعلمَ أنَّ هذا من البلاءِ الذي يحتاجُ إلى الصبرِ، وما يَعْرِضُ للنفسِ

---

(١) الطول: الحبل.

(٢) ونت: فترت وضعفت وكلَّت.

مِن الوَسْواسِ في تأخيرِ الجوابِ مرضٌ يحتاجُ إلى طبٍّ.

ولقد عَرَضَ لي شيءٌ من هذا الجنسِ؛ فإنه نزلَتْ بي نازلةٌ، فَدَعَوْتُ وَبالَغْتُ، فلم أرَ الإجابةَ، فأخذَ إبليسُ يجولُ في حَلَبات كَيْدِهِ.

فتارة يقولُ: الكرمُ واسعٌ والبُخلُ معدومٌ؛ فما فائدةُ تأخيرِ الجوابِ؟!

فقلتُ له: اخسَأ يا لَعينُ! فما أحتاجُ إلى تَقاضٍ، ولا أرضاك وكيلًا.

ثم عدتُ إلى نفسي فقلتُ: إياكِ ومساكنةَ وسوستِه؛ فإنه لو لم يكنْ في تأخيرِ الإجابةِ إلَّا أن يَبْلُوَك المقدِّرُ في محاربةِ العدوِّ؛ لَكفَى في الحكمةِ.

قالت: فَسَلِّني عن تأخيرِ الإجابةِ في مثلِ هذه النازلةِ!

* فقلتُ: قد ثَبَتَ بالبرهانِ أن الله عزَّ وجلَّ مالكٌ، وللمالكِ التصرُّفُ بالمنعِ والعطاءِ؛ فلا وجهَ للاعتراضِ عليه.

* والثاني: أنه قد ثبتتْ حكمتُه بالأدلةِ القاطعةِ؛ فربما رأيتِ الشيءَ مصلحةً والحكمةُ لا تقتضِيه، وقد يخفى وجهُ الحكمةِ فيما يفعلهُ الطبيبُ مِن أشياءَ تُؤذي في الظاهرِ يقصِدُ بها المصلحةَ؛ فلعلَّ هذا من ذاك.

* والثالث: أنه قد يكون التأخيرُ مصلحةً والاستعجالُ مَضَرَّةً، وقد قال النبيُّ ﷺ: «لا يزال العبدُ في خيرٍ ما لم يَسْتَعْجِلْ؛ يقولُ: دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي!»(١).

* والرابع: أنه قد يكونُ امتناعُ الإجابةِ لآفةٍ فيكِ؛ فربما يكونُ في مأكولكِ شُبهةٌ، أو قَلْبُكِ وقتَ الدُّعاءِ في غفلةٍ، أو تُزادُ عقوبتكِ في مَنْعِ حَاجَتِك لِذَنْبٍ ما صَدَقْتِ في التوبةِ منه.

فابحثي عن بعضِ هذه الأسبابِ؛ لعلَّكِ توفَّقينَ بالمقصودِ.

* والخامس: أنه ينبغي أن يقعَ البحثُ عن مقصودكِ بهذا المطلوب؛ فربما كان في حصولِه زيادةُ إثمٍ، أو تأخيرٌ عن مرتبةِ خيرٍ؛ فكان المنعُ أصلحَ.

* والسادس: أنه ربما كان فَقْدُ ما فَقَدْتِهِ سببًا للوقوفِ على البابِ واللَّجَإِ، وحصولُه سببًا للاشتغالِ به عن المسؤولِ. وهذا الظاهرُ؛ بدليلِ أنه لولا هذه النازلةُ؛ ما رأيناكِ على بابِ اللَّجَإِ.

---

(١) أحمد (١٢٥٩٦).

فالحقُّ عزَّ وجلَّ عَلِمَ من الخلقِ اشتغالَهم بالبرِّ عنه، فَلَذَعَهُم[١] في خلالِ النعمِ بعوارضَ تدفعُهم إلى بابِه؛ يستغيثونَ به؛ فهذا من النِّعَمِ في طيِّ البلاءِ، وإنما البلاءُ الـمَحْضُ ما يَشْغَلُكِ عنه، فأما ما يُقيمُكِ بين يديه؛ ففيه جمالُكِ.

وإذا تدبَّرْتِ هذه الأشياءَ؛ تشاغلتِ بما هو أنفعُ لكِ من حصولِ ما فاتَكِ؛ من رفعِ خللٍ، أو اعتذارٍ من زللٍ، أو وقوفٍ على البابِ إلى ربِّ الأربابِ.

ooooo

موقفُ المؤمنِ عندَ الشدائدِ

من نزلت به بَلِيَّةٌ، فأراد تمحيقَها[٢]؛ فليتصوَّرْها أكثرَ مما هي؛ تَهُنْ، ولْيَتَخَايَلْ ثوابَها، ولْيَتَوَهَّمْ نزولَ أعظمَ منها؛ يَرَ الرِّبْحَ في الاقتصارِ عليها، ولْيتلمَّحْ سرعةَ زوالِـها؛ فإنه لولا كَرْبُ الشدةِ؛ ما رُجِيَتْ ساعاتُ الراحةِ، وليعلمْ أن مدةَ مُقامِها عنده كمدةِ مُقامِ الضيفِ؛ فلْيَتَفَقَّدْ حوائجَه في كلِّ لحظةٍ؛ فيا سرعةَ انقضاءِ مُقامِه! ويا لذةَ مدائِحِه وبشرِهِ في المحافلِ ووصفِ المضيفِ بالكرمِ!

فكذلك المؤمنُ في الشدَّةِ؛ ينبغي أن يراعيَ الساعاتِ، ويتفَقَّدَ فيها أحوالَ النفسِ، ويتلمحَ الجوارحَ؛ مخافةَ أن يبدُوَ من اللسانِ كلمةٌ، أو من القلبِ تَسَخُّطٌ، فكَأَنْ قد لاحَ فجرُ الأجرِ، فانجابَ ليلُ البلاءِ ومُدِحَ السَّاري بِقَطْعِ الدُّجى[٣]؛ فما طلعتْ شمسُ الجزاءِ؛ إلَّا وقد وَصَلَ إلى منزلِ السلامةِ.

ooooo

العلمُ يدعو إلى العملِ

لما رأيتُ رأيَ نفسي في العلم حسنًا؛ فهي تُقَدِّمُه على كلِّ شيءٍ، وتعتقدُ الدليلَ، وتُفَضِّلُ ساعةَ التشاغلِ به على ساعاتِ النوافلِ، وتقولُ: أقوى دليلٍ لي على فَضْلِه على

---

(١) فلذعهم: آلمهم.

(٢) تمحيقها: إزالتها.

(٣) الدُّجى: سواد الليل وظلمته.

النوافلِ: أني رأيتُ كثيرًا ممَّن شَغَلَتْهُم نوافلُ الصلاةِ والصَّومِ عن نوافلِ العلمِ عاد ذلك عليهم بالقَدْحِ في الأصولِ؛ فرأيتُها في هذا الاتِّجاهِ على الجادَّةِ السَّهلةِ والرأيِ الصحيحِ.

إلَّا أني رأيتُها واقفةً مع صورةِ التشاغُلِ بالعلمِ، فصِحْتُ بها: فما الذي أفادَكِ العلمُ؟! أين الخوفُ؟! أين القلقُ؟! أين الحَذَرُ؟!

※ أوَ ما سمعتِ بأخبار أخيارِ الأحبارِ في تعبُّدِهم واجتهادِهم؟!

※ أما كان الرسولُ ﷺ سيدَ الكلِّ، ثم إنه قام حتى وَرِمَتْ قَدَماه؟!

※ أما كان أبو بكرٍ ﷺ شَجِيَّ النَّشيجِ كثيرَ البكاءِ؟!

※ أما كان في خدِّ عمرَ ﷺ خَطَّانِ من آثارِ الدُّموعِ؟!

※ أما كان عثمان ﷺ يَخْتِمُ القرآنَ في رَكْعَةٍ؟!

※ أما كان عليٌّ ﷺ يبكي بالليل في محرابِهِ حتى تَخْضَلَّ لحيتُه بالدموعِ، ويقولُ: يا دُنْيا: غُرِّي غيري.

※ أما كانَ الحسنُ البصْريُّ يحيا على قُوَّةِ القَلَقِ.

※ أما كان سعيدُ بن المسيَّبِ ملازِمًا للمسجد، فلم تَفُتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ أربعينَ سنةً؟!

※ أما صامَ الأسودُ بن يزيدَ حتى اخْضَرَّ واصْفَرَّ؟!

※ أما تعلمين أخبارَ الأئمةِ الأربعةِ في زهدِهم وتعبُّدهم؛ أبو حنيفةَ، ومالكٌ والشافعيُّ، وأحمدُ؟!

فاحْذَري من الإخلادِ إلى صورةِ العلم مع تركِ العَمَلِ به؛ فإنها حالةُ الكُسالَى الزَّمْنى[1].

○○○○○

فضلُ العلمِ

مما يزيدُ العلمَ عندي فضلاً: أنَّ قومًا تشاغلوا بالتعبُّدِ عن العلمِ، فوقَفوا عن الوصولِ إلى حقائقِ الطَّلَبِ.

فَرُوِيَ عن بعض القدماءِ أنه قالَ لرجل: يا أبا الوليدِ! إنْ كنتَ أبا الوليد! يتورَّع أنْ

---

(١) الزمنى: المرضى.

يَكْنِيَه ولا وَلَدَ له!

ولو أوغلَ[١] هذا في العلمِ؛ لَعَلِمَ أنَّ النبيَّ ﷺ كَنَّى صُهيبًا أبا يحيى، وكنى طفلًا فقال: «**يا أبا عُمَيرٍ! ما فَعَلَ النُّغَيْرُ**»؟[٢].

ومن المتزهِّدينَ أقوامٌ يَرَوْنَ التوكُّلَ قطعَ الأسبابِ كلِّها.

وهذا جهلٌ بالعلم؛ فإن النبيَّ ﷺ: دخلَ الغارَ، ولَبِسَ الدِّرْعَ، وَحَفَرَ الخندقَ، ودَخَلَ مكةَ في جوارِ الـمُطْعِمِ بنِ عديٍّ وكان كافرًا، وقال لسعدٍ: «**لأنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ لك مِنْ أَنْ تَدَعَهُم عالةً يَتَكَفَّفونَ الناسَ**»[٣]؛ فالوقوفُ مع الأسبابِ مع نسيانِ المسبِّب غَلَطٌ.

وكلُّ هذه الظُّلُماتِ إنما تُقْطَعُ بمصباحِ العلمِ، ولقد ضلَّ مَنْ مَشَى في ظُلمةِ الجهلِ أو في زُقاقِ الهوى.

ooooo

تأملاتٌ في تدبيرِ الخالقِ

لما تلمَّحْتُ تدبيرَ الصانعِ في سَوْقِ رزقي؛ بتَسْخيرِ السَّحابِ، وإنزالِ المطرِ برفقٍ، والبِذْرُ دفينٌ تحتَ الأرضِ؛ كالموتى، قد عَفِنَ، ينتظر نفخةً من صُورِ الحياةِ؛ فإذا أصابتْه؛ اهتزَّ خَضِرًا، وإذا انقطعَ عنه الماءُ؛ مدَّ يَد الطلبِ يَسْتَعْطِي، وأمالَ رأسَهُ خاضعًا، ولبس حُلَلَ التغيُّرِ؛ فهو محتاجٌ إلى ما أنا محتاجٌ إليه من حرارةِ الشمسِ، وبرودةِ الماءِ، ولُطفِ النسيمِ، والأرضِ!

فسبحانَ من أراني – فيما يُرَبِّيني به – كيف تَرْبيتي في الأصلِ.

فيا أيتُها النفسُ التي قد اطَّلَعتْ على بعضِ حِكَمِهِ! قبيحٌ بكِ واللهِ الإقبالُ على غيرِه.

ثم العجبُ! كيف تُقبِلينَ على فقيرٍ مثلك، يناديني لسانُ حالِه: بي مثلُ ما بَكَ يا حَمَامُ؟!

فارْجِعي إلى الأصلِ الأوَّلِ، واطلُبي من المسبِّب، ويا طُوبى لكِ أن عرفْتِيه! فإنَّ

---

(١) أوغل: تعمّق.

(٢) البخاري (٦٢٠٣)؛ ومسلم (٢١٥٠).

(٣) البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨).

عرفانَه مُلْكُ الدُّنيا والآخرةِ.

ooooo

الأسبابُ لا تنافي التوكلَ

عَرَضَتْ لي حالةٌ لجأتُ فيها بقلبي إلى الله تعالى وحدَه؛ عالـمًا بأنه لا يَقْدِرُ على جَلْبِ نفعي ودَفْعِ ضُرِّي سواه، ثم قُمْتُ أتعرَّضُ بالأسبابِ.

فأنكرَ عليَّ يقيني، وقال: هذا قدحٌ في التوكُّل!

فقلتُ: ليس كذلك؛ فإن اللهَ تعالى وَضَعَها من الحِكَم، وكان معنى حالي: أنَّ ما وَضَعْتَ لا يُفيدُ وأنَّ وجودَه كالعدمِ!

وما زالتِ الأسبابُ في الشرعِ. كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ [يوسف: ٤٧].

وقد ظاهر النبيُّ ﷺ بين درعينِ(١).

ولما خرج إلى الطائف؛ لم يقدِرْ على دُخولِ مكةَ، حتى بعثَ إلى الـمُطْعِمِ بنِ عديٍّ، فقال: «أدخلُ في جوارك»(٢)؛ وقد كانَ يُمْكِنُهُ أنْ يَدْخُلَ متوكِّلًا بلا سببٍ.

فإذا جَعَلَ الشرعُ الأمورَ مَنوطةً بالأسبابِ؛ كان إعراضي عن الأسبابِ دفعًا للحكمةِ. ولهذا أرى أنَّ التَّداويَ مندوبٌ إليه.

فإنَّ الحديثَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أنزلَ الله داءً؛ إلَّا وأنزلَ له دواءً؛ فتداوَوْا»(٣)، ومرتبةُ هذه اللفظةِ الأمرُ، والأمرُ إما أن يكونَ واجبًا أو ندبًا، ولم يَسْبِقْهُ حَظْرٌ؛ فيقالُ: هو أمرُ إباحةٍ.

وقال عليه الصلاةُ والسلام لعليِّ بن أبي طالبٍ ﷺ: «كُلْ مِنْ هذا؛ فإنَّه أوفقُ لكَ

---

(١) أحمد (١٥٢٩٥)؛ وأبوداود (٢٥٩٠)؛ وابن ماجه (٢٨٠٦).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة، والطبري في تاريخ الأمم والملوك (١/ ٥٥٥).

(٣) البخاري (٥٦٧٨).

مِنْ هذا»[١].

ومَنْ ذَهَبَ إلى أنَّ تَرْكَهُ أفضلُ؛ احتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «**يدخلُ الجنةَ سبعونَ ألفًا بلا حسابٍ...**»، ثم وَصَفَهُم فقال: «**لا يَكْتَوونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ**»[٢].

وهذا لا ينافي التَّداوِيَ؛ لأنه قد كان أقوامٌ يَكْتَوونَ لئلَّا يمرَضُوا، ويَسْتَرْقون لئلَّا تُصيبَهم نَكْبَةٌ، وقد كَوَى عليه الصلاةُ والسلامُ أسعدَ بنَ زُرارةَ[٣]، ورخَّصَ في الرُّقْيَةِ في الحديثِ الصَّحيحِ[٤]، فَعَلِمْنَا أن المرادَ ما أشرنا إليه.

○○○○○

الإسلامُ والنظافةُ

تَلَمَّحْتُ على خَلْقٍ كثيرٍ من الناسِ إهمالَ أبدانِهم؛ فمنهم مَن لا يُنَظِّفُ فَمَه بالخِلالِ[٥] بعد الأكلِ، ومنهم مَن لا يُنَقِّي يدَيْهِ في غَسْلِها من الزَّهَمِ[٦]، ومنهم من لا يكادُ يستاكُ، وفيهم من لا يكتَحِلُ، وفيهم من لا يراعي الإبطَ... إلى غير ذلك، فيعودُ هذا الإهمالُ بالخللِ في الدينِ والدُّنيا.

أما الدينُ؛ فإنه قد أمَرَ المؤمنَ بالتنظُّفِ والاغتسالِ للجُمَعةِ لأجل اجتماعِهِ بالناسِ، ونهى عن دُخولِ المسجدِ إذا أكل الثُّومَ، وأمرَ الشرعُ بتنقيةِ البراجمِ[٧] وقصِّ الأظفارِ والسواكِ والاستحدادِ[٨]... وغيرِ ذلك من الآدابِ؛ فإذا أُهْمِلَ ذلك؛ تُرِكَ مسنونُ الشرعِ، وربما تعدَّى بعضُ ذلك إلى فسادِ العبادةِ؛ مثل أن يُهْمِلَ أظفارَه، فَيَجْمَعَ تحتَه

(١) الترمذي (٢٠٣٧)؛ وأحمد (٢٦٥١٣).
(٢) البخاري (٥٧٠٥)؛ ومسلم (١٩١).
(٣) أبو داود (٣٨٦٦)، والترمذي (٢٠٥٠)، وابن ماجه (٣٤٩٤)، وأحمد (١٤٤٨٩).
(٤) البخاري (٥٧٤١)؛ ومسلم (٢١٩٣).
(٥) الخلال: العود الذي يتخلل به.
(٦) الزهم: الشحم والدسم.
(٧) البراجم: مفاصل الأصابع.
(٨) الاستحداد: حلق العانة.

الوسخَ المانعَ للماء في الوضوءِ أن يصلَ.

وأما الدُّنيا؛ فإني رأيتُ جماعةً من المُهْمِلينَ أنفسَهُم يتقدّمُون إلى السِّرارِ[١]، والغفلةُ التي أوجبتْ إهمالَهم أنفسَهم أوجبتْ جهلَهم بالأذى الحادث عنهم؛ فإذا أخذوا في مناجاةِ السِّرِّ؛ لم يمكنْ أنْ أصدِفَ عنهم[٢]؛ لأنهم يقصِدون السِّرَّ، فألقى الشدائدَ من ريح أفواهِهِم، ولعلَّ أكْثَرَهم من وقتِ انتباهِم ما أمرَّ أصبعَه على أسنانِهِ!!

ثم يوجبُ مثل هذا نفورَ المرأةِ، وقد لا تستحسنُ ذِكْرَ ذلك للرجلِ، فَيُثْمِرُ ذلك التفاتَها عنه.

وقد كان ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يقولُ: إني لأحبُّ أن أتزيَّن للمرأةِ كما أحبُّ أن تتزينَ لي.

وقد كان النبيُّ ﷺ أنظفَ الناس وأطيبَ الناس. وكان لا يفارِقُه السِّواكُ.

وكان يكرهُ أنْ يُشَمَّ منه ريحٌ ليستْ طيبةً.

وقد قالتِ الحكماء: من نظَّفَ ثوبَه؛ قَلَّ همُّه؛ ومن طاب ريحُه؛ زاد عقلُه.

ثم إنه يَقْرُبُ من قلوب الخَلْق، وتحبُّه النُّفوسُ؛ لنظافتِه وطيبِه.

وقد كان النبيُّ ﷺ يحبُّ الطِّيبَ.

ثم إنه يُؤنِسُ الزوجةَ بتلك الحالِ؛ فإنَّ النساءَ شقائقُ الرِّجالِ؛ فكما أنه يكرهُ الشيءَ منها؛ فكذلك هي تكرهُه، وربما صَبَرَ هو على ما يكرهُ، وهي لا تَصْبِرُ.

وقد رأيت جماعةً يزعمُون أنهم زهَّادٌ، وهم مِن أقذرِ الناس، وذلك أنهم ما قوَّمهُمُ العلمُ.

ومَنْ تأمَّل خصائصَ الرسولِ ﷺ؛ رأى كاملًا في العلمِ والعملِ؛ فبه يكونُ الاقتداءُ، وهو الحجةُ على الخلقِ.

ooooo

---

(١) السرار: المناجاة.

(٢) أصدف عنهم: أعرض عنهم.

حكمة البلاء

ليس في التَّكليفِ أصعبُ من الصَّبرِ على القضاءِ، ولا فيه أفضلُ من الرِّضى به.

فأما الصبرُ؛ فهو فرضٌ، وأما الرِّضَى؛ فهو فضلٌ.

وإنما صَعُبَ الصبرُ؛ لأنَّ القَدَرَ يجري في الأغلبِ بمكروهِ النفسِ.

وليس مكروهُ النَّفْسِ يَقِفُ على المرضِ والأذى في البدنِ؛ بل هو يتنوَّعُ، حتى يتحيَّرَ العقلُ في حكمةِ جَرَيان القدرِ.

فمن ذلك أنَّك إذا رأيتَ مغمورًا بالدُّنْيا؛ قد سالتْ له أوديتُها، حتى لا يدري ما يصنعُ بالمالِ؛ فهو يَصوغُهُ أوانِيَ يستعمِلُها، ومعلومٌ أنَّ البِلَّوْرَ[1] والعقيقَ[2] والشَّبَهَ[3] قد يكونُ أحسنَ منها صورةً؛ غير أنَّ قِلَّةَ مبالاتِهِ بالشريعةِ، جعلتْ عنده وجودَ النهيِ كعدمِهِ! وَيَلْبَسُ الحريرَ، ويظلِمُ الناسَ، والدُّنيا مُنْصبَّةٌ عليه، ثم ترى خَلْقًا من أهل الدِّينِ وطُلَّابِ العلمِ؛ مغمورينَ بالفَقْرِ والبلاءِ، مقهورين تحتَ ولايةِ ذلك الظالمِ؛ فحينئذٍ يَجِدُ الشيطانُ طريقًا للوَسْواسِ، ويبتدئ بالقدْحِ في حكمةِ القَدَرِ؛ فيحتاجُ المؤمنُ إلى الصبرِ على ما يلقى من الضُّرِّ في الدُّنيا وعلى جدالِ إبليسَ في ذلك.

وكذلك في تسليطِ الكُفَّارِ على المسلمينَ والفُسَّاقِ على أهل الدِّينِ.

وأبلغُ من هذا إيلامُ الحيوانِ وتعذيبُ الأطفالِ.

ففي مثلِ هذه المواطنِ يتمحَّصُ الإيمانُ.

ومما يُقَوِّي الصَّبْرَ على الحالتين: النقلُ، والعقلُ.

أما النقلُ؛ فالقرآنُ والسُّنَّةُ.

أما القرآنُ؛ فمنقسمٌ إلى قسمينِ:

*** أحدُهما: بيانُ سببِ إعطاءِ الكافرِ والعاصي:**

فمن ذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ

---

(١) البلّور: حجر أبيض شفاف.

(٢) العقيق: حجر نفيس أحمر يعمل منه الفصوص.

(٣) الشبه: النُّحاس.

ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦]... وفي القرآنِ من هذا كثيرٌ.

* **والقسم الثاني: ابتلاءُ المؤمنِ بما يَلْقى:**

كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي القرآن من هذا كثيرٌ.

وأما السُّنَّةُ؛ فمنقسمةٌ إلى قولٍ وحالٍ:

أما الحالُ؛ فإنه ﷺ كان يَتَقَلَّبُ على رمالِ حَصيرٍ تؤثِّرُ في جنبِه، فبكى عمرُ ﷺ، وقال: كسرى وقيصرُ في الحرير والدِّيباجِ! فقال ﷺ: «**أفي شكٍّ أنت يا عمر؟! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرةُ ولهم الدُّنيا؟!**»[1].

وأما القولُ؛ فكقولِه عليه الصلاةُ والسلام: «**لو أن الدُّنيا تساوي عند الله جَنَاحَ بعوضةٍ؛ ما سَقَى كافرًا منها شَرْبَةَ ماء**»[2].

وأما العقلُ؛ فإنَّه يقوِّي عساكرَ الصبرِ بجنودٍ:

* **منها:** أن يقول: قَد ثبتتْ عندي الأدلةُ القاطعةُ على حكمةِ المقدِّر؛ فلا أترُكُ الأصلَ الثابتَ لما يظنُّه الجاهلُ خللًا.

* **ومنها:** أن يقولَ: قد ثَبَتَ أنَّ المؤمنَ بالله كالأجيرِ، وأنَّ زمنَ التَّكليفِ كبياضِ نهارٍ، ولا ينبغي للمُسْتَعْمَلِ في الطِّينِ أن يَلْبَسَ نظيفَ الثيابِ، بل ينبغي أن يصابِرَ ساعاتِ العملِ؛ فإذا فَرَغَ؛ تَنَظَّفَ وَلبِسَ أجودَ ثيابِه؛ فمن تَرَفَّهَ وقتَ العملِ؛ نَدِمَ وقتَ تفريقِ الأُجْرةِ، وعوقبَ على التواني فيما كُلِّفَ.

فهذه النَّبْذَةُ تقوِّي أَزْرَ الصبرِ.

ooooo

(١) البخاري (٢٤٦٨)؛ ومسلم (١٤٧٩).

(٢) الترمذي (٢٣٢٠)؛ وابن ماجه (٤١١٠).

جهلُ بعضِ المتصوفةِ

ليس في الوجودِ شيءٌ أشرفَ من العلمِ.

كيف لا وهو الدليلُ؛ فإذا عُدِمَ؛ وَقَعَ الضلالُ؟!

وإنَّ من خفِيِّ مكائدِ الشيطانِ أنْ يُزَيِّنَ في نفسِ الإنسانِ التعبُّدَ؛ لِيَشْغَلَهُ عن أفضلِ التعبُّدِ، وهو العلمُ؛ حتى إنه زيَّن لجماعةٍ من القدماءِ أنهم دفنوا كُتُبَهم ورمَوْهَا في البحرِ! وهذا قد وردَ عن جماعةٍ.

وقد دنتْ حيلةُ إبليسَ إلى جماعةٍ من المتصوِّفةِ، حتى منعوا من حَمْلِ المحابرِ تلامذَتَهم، وحتى قال جعفرٌ الخُلْدِيُّ: لو تَرَكَنِي الصوفيَّةُ؛ جئتُكم بإسنادِ الدُّنيا، كتبتُ مجلسًا عن عباسٍ الدُّورِيِّ، فَلَقِيَنِي بعضُ الصوفيةِ، فقال: دعْ علمَ الورقِ، وعليك بعلم الخِرَقِ. ورُئِيَتْ محبرةٌ مع بعضِ الصوفيةِ، فقال له صوفِيٌّ آخرُ: استرْ عورتَكَ! وقد أنشدوا للشِّبْلِيِّ:

إذا طالَبوني بِعِلْمِ الوَرَقْ ... بَرَزْتُ عليهِمْ بِعِلْمِ الخِرَقْ

وهذا من خفيِّ حيلِ إبليسَ، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإنما فعل وزيَّنَه عندَهم لسببينِ:

* **أحدهما:** أنه أرادَهُم يمشونَ في الظُّلمةِ.

* **والثاني:** أنَّ تصفُّحَ العلمِ كلَّ يومٍ يزيدُ في العالِمِ، ويكشِفُ له ما كان خَفِيَ عنه، ويقوِّي إيمانَه ومعرفتَه، ويُريهِ عيبَ كثيرٍ من مَسَالِكِه؛ إذا تصفَّحَ منهاجَ الرسولِ ﷺ والصحابةِ.

فأراد إبليسُ سدَّ تلك الطُّرقِ بأخْفَى حيلةٍ، فأظهرَ أنَّ المقصودَ العملُ لا العلمُ لنفسِه، وخَفِيَ على المخدوع أنَّ العلمَ عملٌ، وأيُّ عملٍ!

فاحذرْ من هذه الخديعةِ الخفيَّةِ؛ فإن العلمَ هو الأصلُ الأعظمُ والنورُ الأكبرُ.

وكم من مُعْرِضٍ عن العلمِ يخوضُ في عذابٍ من الهوى في تعبُّده، ويضيِّعُ كثيرًا من الفرضِ بالنفلِ، ويشتغلُ بما يزعُمُه الأفضلَ عن الواجِبِ، ولو كانت عنده شُعْلَةٌ من نورِ العلمِ؛ لاهتدى.

فتأمَّلْ ما ذكرتُ لك؛ تَرْشُدْ إن شاء الله تعالى.

○○○○○

نصيحة لأهل الوعظ

تأملتُ أشياءَ تجري في مجالسِ الوَعْظِ، يعتقِدُها العوامُّ وجُهالُ العلماءِ قُربةً، وهي منكرٌ وبُعْدٌ.

وذاك أنَّ المقرئَ يُطْرِبُ ويُخْرِجُ الألحانَ إلى الغناءِ، والواعظَ ينشدُ بتطريبٍ أشعارَ المجنونِ وليلى، فيصفقُ هذا! ويَخْرِقُ ثوبَه هذا! ويعتقدونَ أن ذلك قُربةٌ!!

ومعلومٌ أن هذه الألحانَ كالموسيقى، توجب طربًا للنفس ونشوةً؛ فالتعرُّضُ بما يوجبُ الفسادَ غلطٌ عظيمٌ، وينبغي الاحتسابُ على الوعَّاظِ في هذا.

وكذلك المقابِريُّون منهم؛ فإنهم يُهيجونَ الأحزانَ؛ ليكْثُرَ بكاءُ النساءِ، فيُعْطَوْنَ على ذلك الأجرةَ، ولو أنهم أمروا بالصبر؛ لم تُرِدِ النسوةُ ذلك! وهذه أضدادٌ للشرعِ.

وفي الوعاظِ من يتكلَّمُ على طريقِ المعرفةِ والمحبَّةِ، فترى الحائِكَ والسُّوقيَّ الذي لا يعرفُ فرائضَ تلك الصلاةِ يمزِّقُ أثوابَه؛ دعوىً لمحبةِ الله تعالى!! والصافي حالًا منهم - وهو أصلحُهم - يَتَخَايَلُ بِوَهْمِهِ شخصًا هو الخالقُ، فَيُبْكِيه شوقُه إليه لما يَسْمَعُ من عظمتِهِ ورحمتِهِ وجمالِهِ.

وليس ما يتخايلونَهُ المعبودَ؛ لأنَّ المعبودَ لا يقعُ في خيالٍ.

وبعد هذا؛ فالتحقيقُ مع العوامِّ صعبٌ، ولا يكادونَ ينتفعون بمُرِّ الحقِّ؛ إلَّا أنَّ الواعظَ مأمورٌ بأن لا يتعدَّى الصوابَ، ولا يتعرَّضَ لما يُفْسِدُهم، بل يجذِبُهم إلى ما يَصْلُحُ بألطفِ وجهٍ، وهذا يحتاجُ إلى صناعةٍ؛ فإنَّ من العوامِّ من يعجبُهُ حسنُ اللفظِ، ومنهم من يعجبُهُ الإشارةُ، ومنهم مَن ينقادُ ببيتٍ من الشعرِ.

وأحوجُ الناس إلى البلاغةِ الواعظُ؛ ليجمعَ مطالِبَهم، لكنه ينبغي أن يَنْظُرَ في اللازمِ الواجبِ، وأن يُعْطِيَهم من المباحِ في اللفظِ قَدْرَ الملحِ في الطعامِ، ثم يجتذِبُهم إلى العزائمِ، ويعرِّفُهم الطريقَ الحقَّ.

وقد كان جماعةٌ من السلفِ يَرَوْنَ تخليطَ القُصَّاصِ، فينهونَ عن الحضورِ عندَهم، وهذا على الإطلاقِ لا يَحْسُنُ اليومَ؛ لأنه كان الناسُ في ذلك الزمانِ متشاغلينَ بالعلم، فرأَوْا حضورَ القَصَصِ صادًّا لهم، واليوم كَثُرَ الإعراضُ عن العلم، فأنفعُ ما للعاميِّ مجلسُ

الوعظِ، يردُّه عن ذنبٍ، ويحرِّكُه إلى توبةٍ، وإنَّما الخللُ في القاصِّ؛ فليتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ.

○○○○○

العشقُ داءُ الجامدينَ

نظرتُ فيما تكلَّم به الحكماءُ في العشقِ وأسبابِهِ وأدويتِه، إلَّا أنه خَطَرَ لي بعد ذلك معنًى عجيبٌ أشرَحُه ها هنا، وهو أنه لا يتمكَّنُ العشقُ إلَّا مع واقفٍ جامدٍ، فأما أربابُ صعودِ الهممِ؛ فإنها كلَّما تَخَايَلَتْ ما توجبُهُ المحبةُ، فلاحتْ عيوبُه لها – إما بالفِكْرِ فيه أو بالمخالطةِ –؛ تسلَّتْ أنفسُهُم وتَعَلَّقَتْ بمطلوبٍ آخرَ.

فلا يقفُ على درجةِ العشقِ، الموجبِ للتمسُّكِ بتلك الصورةِ، العامِيْ عن عيوبِها؛ إلَّا جامدٌ واقفٌ.

وأما أربابُ الأَنَفَةِ من النقائصِ؛ فإنهم أبدًا في الترقِّي لا يصدُّهم صادٌّ.

وقد قال ابن مسعود: إذا أَعْجَبَتْ أَحَدَكُمُ امرَأَةٌ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ مَنَاتِنَهَا.

وعلى قَدْرِ النظرِ في العواقبِ يَخِفُّ العشقُ عن قلبِ العاشقِ، وعلى قَدْرِ جُمودِ الذِّهْنِ يقوى القَلَقُ. قال المتنبي:

لَوْ فَكَّرَ العاشِقُ فِي مُنْتَهَى ... حُسْنِ الذي يُسْبِيهِ لمْ يُسْبِهِ

ومجموعُ ما أردتُ شرحَه: أنَّ طباعَ المتيقِّظينَ تَتَرَقَّى فلا تقفُ مع شخصٍ مستحسَنٍ، وسببُ ترقِّيها: التفكيرُ في نقصِ ذلك الشخص وعيوبِهِ، أوْ في طَلَبِ ما هو أهمُّ منه، وقلوبُ العارفين تترقَّى إلى معروفها، فَتَعْبُرُ في مَعْبَرِ الاعتبار، فأما أهلُ الغَفْلَةِ؛ فجُمودُهم في الحالتينِ، وغفلتُهم عن المقامينِ؛ يوجبُ أَسْرَهُمْ وقَسْرَهم وحَيْرَتَهم.

○○○○○

في طولِ العمرِ

دعوتُ يومًا فقلتُ: اللهم بَلِّغْني آمالي من العلمِ والعملِ، وأطلْ عُمُري لأَبْلُغَ ما أحِبُّ من ذلك. فعارضَني وَسْوَاسٌ من إبليسَ، فقالَ: ثم ماذا؟ أليسَ الموتُ؟ فما الذي ينفعُ طولُ الحياةِ؟!

فقلت له: يا أبلهُ! لو فَهِمْتَ ما تحتَ سؤالي؛ علمتَ أنه ليس بِعَبَثٍ. أليس في كلِّ يوم يزيدُ عِلْمي ومعرفتي، فتكثرُ ثِمارُ غَرْسي، فأَشْكَرَ يوم حَصَادي؟! أفيسرُّني أنني متُّ منذ عشرينَ سنةً؟! لا والله؛ لأني ما كنتُ أعرفُ اللهَ تعالى عُشْرَ معرفتي به اليومَ. وكلُّ ذلك ثمرةُ الحياةِ؛ التي فيها اجْتَنَيْتُ أدلةَ الوحدانيةِ، وارتقيتُ عن حَضيضِ التقليدِ إلى يَفَاعِ البصيرةِ[1]، واطَّلَعْتُ على علومٍ زَادَ بها قَدْرِي وَتَجَوْهَرَتْ بها نفسي، ثم زاد غَرْسِي لآخرتي، وقويتْ تِجارتي في إنقاذِ المُباضِعينَ[2] من المتعلِّمينَ.

وقد قال اللهُ لسيدِ المرسلينَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي «صحيح مسلمٍ» من حديثِ أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يزيدُ المؤمنَ عُمُرُهُ إلَّا خيرًا»[3].

فيا ليتني قَدَرْتُ على عُمُرِ نوحٍ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ، وكلَّما حَصَلَ منه حاصلٌ؛ رَفَعَ وَنَفَعَ.

○○○○○

في أن التقوى أصلُ السلامة

اعلمْ أنَّ الزمانَ لا يَثْبُتُ على حالٍ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ فتارةً فقرٌ، وتارةً غنًى، وتارةً عزٌّ، وتارةً ذلٌّ، وتارةً يفرحُ الموالي، وتارةً يشمتُ الأعادي.

فالسعيدُ من لازم أصلًا واحدًا على كلِّ حالٍ، وهو تقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فإنه إن استغنى؛ زانَتْهُ، وإن افتقرَ؛ فتحتْ له أبوابَ الصبرِ، وإن عوفي؛ تمتِ النعمةُ عليه، وإن ابْتُلِيَ؛ جَمَّلَتْه، ولا يضرُّه إن نَزَلَ به الزمانُ أو صَعِدَ، أو أعراه أو أَشْبَعَهُ أو أجاعه؛ لأنَّ جميعَ تلك الأشياءِ تزولُ وتتغيَّرُ، والتقوى أصلُ السلامةِ، حارسٌ لا ينامُ، يأخذُ باليدِ عند العَثْرَةِ، ويواقِفُ على الحدودِ.

والـمُنْكِرُ مَن غَرَّتْهُ لَذَّةٌ حصلتْ مع عدمِ التَّقْوى؛ فإنها سَتَحولُ وتُخَلِّيه خاسرًا.

---

(١) يفاع البصيرة: قمة البصيرة.

(٢) المباضعين: الذين يخاطرون بأنفسهم.

(٣) مسلم (٢٦٨٢).

فَلَازِمِ التَّقوى في كلِّ حالٍ؛ فإنك لا ترى في الضِّيق إلَّا السَّعَةَ، وفي المرضِ إلَّا العافيةَ؛ هذا نقدُها العاجلُ، والآجلُ معلومٌ.

○○○○○

مقصودُ اللذةِ والهوى

لما كان بدنُ الآدميِّ لا يقومُ إلَّا باجتلابِ المصالحِ ودفعِ المؤذي؛ رُكِّبَ فيه الهوى؛ ليكونَ سببًا لجلبِ المنافعِ، والغضبُ؛ ليكون سببًا لدَفْعِ المؤذي.

ولولا الهوى في الـمَطْعَم؛ ما تناوَلَ الطعامَ، فلم يَقُمْ بدنُهُ، فجُعِلَ له إليه ميلٌ وتَوْقٌ؛ فإذا حَصَلَ له قَدْرُ ما يُقيم بَدَنَه؛ زال التَّوْقُ.

وكذلك في الـمَشْرَبِ والـمَلْبسِ والـمَنْكح.

وفائدةُ الـمَنْكَحِ من وجهين: **أحدُهما**: إبقاءُ الجنسِ، وهو معظمُ المقصودينِ.
والثاني: دفعُ الفَضْلَةِ المحتقنةِ المؤذي احتقانُها.

ولولا تركيبُ الهوى المائلِ بصاحِبِه إلى النِّكاحِ؛ ما طَلَبَهُ أحدٌ، ففاتَ النسلُ.

فأمَّا العارفون؛ فإنهم فَهِموا المقصودَ.

وأمَّا الجاهلونَ؛ فإنهم مالوا مع الشَّهوةِ والهوى، ولم يفهموا مقصودَ وَضْعِها، فضاعَ زمانُهم فيما لا طائلَ فيه، وفاتهم ما خُلِقوا لأجلِه، وأخرجهم هواهُم إلى فسادِ المالِ وذَهابِ العِرْضِ والدينِ، ثم أدَّاهم إلى التَّلَفِ.

وكم قد رأينا من متنعِّم يبالغُ في شراءِ الجواري ليحرِّكَ طبعَه بالمستَجَدِّ؛ فما كان بأسرعَ من أنْ وَهَنَتْ قُواه الأصليةُ، فتعجَّلَ تَلَفَهُ.

وكذلك رأينا مَن زاد غضبُهُ، فخرجَ عن الحدِّ، ففتكَ بنفسِه وبمن يحبُّه.

فمَن عَلِمَ أنَّ هذه الأشياء إنما خُلِقَتْ إعانةً للبدنِ على قطعِ مراحلِ الدُّنْيا، ولم يُخْلَق لنفسِ الالتذاذِ، وإنما جُعِلَتِ اللَّذَّةُ فيها كالحيلةِ في إيصالِ النفعِ بها؛ إذْ لو كانَ المقصودُ التنعُّمُ بها؛ لما جُعِلَتِ الحيواناتُ البهيميةُ أوفى حظًّا من الآدميِّ منها.

فطوبى لمن فَهِمَ حقائقَ الوضعِ، ولم يَمِلْ به الهوى عن فَهْمِ حِكَمِ المخلوقاتِ.

○○○○○

في شؤمِ المعصيةِ وبركةِ الطاعةِ

مَن تأمَّلَ عواقبَ المعاصي؛ رآها قبيحةً.

ولقد تفكَّرْتُ في أقوامٍ أعرِفُهم، يُقِرُّون بالزِّنى وغيرِه، فأرى مِنْ تعثُّرِهم في الدُّنيا مع جلادَتِهم ما لا يقِفُ عندَ حَدٍّ، وكأنَّهُم قد أُلْبِسوا ظُلمةً؛ فالقلوبُ تَنْفِرُ عنهم؛ فإن اتَّسَع لهم شيءٌ؛ فأكثرُهُ من مالِ الغيرِ، وإن ضاقَ بهم أمرٌ؛ أخَذُوا يَتَسَخَّطونَ على القَدَرِ. هذا وقد شُغِلوا بهذه الأوساخِ عن ذِكْرِ الآخرةِ.

ثم عكستُ، فتفكَّرْتُ في أقوامٍ صابَروا الهوى، وتَرَكوا ما لا يَحِلُّ؛ فمنهم من قد أينعتْ له ثمراتُ الدُّنيا؛ من قوتٍ مستلذٍّ، ومِهادٍ مُستطابٍ، وعيشٍ لذيذٍ، وجاهٍ عريضٍ؛ فإن ضاقَ بهم أمرٌ؛ وسَّعَهُ الصبرُ، وطيَّبَهُ الرِّضى.

ففهمتُ بالحال معنى قولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٩٠].

○○○○○

عثراتُ الطريقِ

رأيتُ كلَّ مَنْ يَعْثُرُ بشيءٍ أو يَزْلَقُ في مطرٍ يلتفتُ إلى ما عَثَرَ به فينظرُ إليه؛ طَبْعًا موضوعًا في الخلقِ: إما لِيَحْذَرَ منه إن جازَ عليه مرةً أخرى، أو لِيَنْظُرَ – مع احترازِهِ وفهمِهِ – كيف فاته التحرُّزُ من مثلِ هذا؟! فأخذتُ من ذلك إشارةً، وقلتُ:

يا من عَثَرَ مرارًا! هَلَّا أبصرتَ ما الذي عَثَّرَكَ؛ فاحترزتَ من مثلِه، أو قبَّحْتَ لنفسِك مع حَزْمِها – تلكَ الواقعةَ؟! فإنَّ الغالبَ ممَّن يلتفِتُ أنَّ معنى التفاتِه: كيفَ عَثَرَ مثلي – مع احترازِهِ – بمثلِ ما أرى؟!

فالعجبُ لك! عثرتَ بمثل الذنبِ الفلانيِّ والذنبِ الفلانيِّ! كيف غَرَّكَ زُخْرُفٌ تَعْلَمُ بعقلِكَ باطنَه، وترى بعينِ فكرِك مآلَه؟! كيف آثرتَ فانيًا على باقٍ؟! كيف بِعْتَ بِوَكْسٍ[1]؟ كيف اخترتَ لَذَّةَ رَقْدَةٍ على انتباهِ معاملةٍ؟!

---

(١) الوكس: الخسران.

آهٍ لك! لقدِ اشتريتَ بها بعتَ أحمالَ ندمٍ لا يُقِلُّها ظَهْرٌ، وتنكيسَ رأسٍ أمسى بعيد الرفعِ، ودموعَ حُزْنٍ على قُبْحِ فعلٍ ما لِـمَدَدِها انقطاعٌ... وأقبحُ الكلِّ أن يُقالَ لك: بماذا؟! ومِن أجلِ ماذا؟! وهذا على ماذا؟!

○○○○○

في أن التقوى تدفعُ البلاءَ

تأملتُ قولَه تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَایَ فَلَا یَضِلُّ وَلَا یَشۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]: قال المفسرون: ﴿ هُدَایَ ﴾: رسولُ الله ﷺ وكتابي. فوجدتُه على الحقيقة: أنَّ كُلَّ مَنِ اتَّبَعَ القرآنَ والسنَّةَ، وعَمِلَ بما فيهما؛ فقد سَلِمَ من الضَّلال بلا شكٍّ، وارتفعَ في حقِّه شقاءُ الآخرةِ بلا شكٍّ، إذا مات على ذلك، وكذلك شقاءُ الدُّنيا؛ فلا يَشْقَى أصلًا، ويُبَيِّنُ هذا قولُه تعالى: ﴿ وَمَن یَتَّقِ ٱللَّهَ یَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجࣰا ﴾ [الطلاق: ٢].

فإن رأيتَه في شِدَّةٍ؛ فلهُ من اليقين بالجزاءِ ما يُصَيِّرُ الصَّابَ[1] عنده عسلًا، وإلَّا غَلَبَ طيبُ العيشِ في كلِّ حال.

والغالبُ أنه لا ينزِلُ به شدَّةٌ إلَّا إذا انحرفَ عن جادَّةِ التَّقْوى، فأمَّا الملازمُ لطريقِ التَّقْوى؛ فلا آفةَ تَطْرُقُه ولا بَلِيَّةَ تَنْزِلُ به. هذا هو الأغلبُ.

فإن نَدَرَ[2] من تطرقُهُ البلايا مع التَّقوى؛ فذاكَ في الأغلبِ لتقدُّمِ ذنبٍ يُجازَى عليه.

فإنْ قدَّرْنا عدمَ الذَّنْبِ؛ فذاك لإدخالِ ذَهَبِ صَبْرِهِ كِيرَ البلاءِ، حتى يَخْرُجَ تِبْرًا أحمرَ؛ فهو يرى عُذوبةَ العذابِ؛ لأنه يشاهِدُ المبتلي في البلاءِ لا الألَـمَ.

○○○○○

---

(١) الصاب: المر.

(٢) ندر هنا بمعنى: ظهر وبرز.

المؤمنُ والمعصيةُ

لا ينالُ لَذَّة المعاصي إلَّا سكرانُ الغفلةِ.

فأما المؤمنُ؛ فإنَّه لا يلتذُّ؛ لأنه عند التذاذِهِ يقفُ بإزائِهِ عَلَمُ التَّحريمِ وَحَذَرُ العقوبةِ.

فإن قويتْ معرفتُه؛ رأى بعينِ علمِهِ قربَ الناهي، فيتنغَّصُ عيشُه في حالِ التذاذِهِ.

فإن غَلَبَ سُكْرُ الهوى؛ كانَ القلبُ متنغِّصًا بهذه المراقباتِ، وإنْ كان الطبعُ في شهوتِهِ.

وما هي إلَّا لحظةٌ، ثم خُذْ من غَريمِ نَدَمٍ ملازمٍ، وبكاءٍ متواصلٍ، وأسفٍ على ما كانَ مع طولِ الزَّمانِ، حتَّى إنه لو تيَقَّنَ العفوَ؛ وَقَفَ بإزائِهِ حَذَرُ العتابِ.

فأُفٍّ للذُّنوبِ! ما أقبحَ آثارَها! وما أسوأَ أخبارَها!

ولا كانتْ شهوةٌ لا تُنالُ إلَّا بمقدارِ قوةِ الغفلةِ.

○○○○○

إياكم ومحقَّرات الذنوبِ

كثيرٌ من الناس يتسامَحون في أمورٍ يظنُّونها قريبةً وهي تقدَحُ في الأصولِ؛ كاستعارةِ طلابِ العلم جُزْءًا لا يردُّونه، وقصدِ الدُّخولِ على من يأكُلُ لِيُؤْكَلَ معه، والتسامحِ بِعِرْضِ العدوِّ التذاذًا بذلك، واستصغارًا لمثلِ هذا الذنبِ، وإطلاقِ البصرِ استهانةً بتلك الخطيئةِ، وفتوى مَن لا يَعْلَمُ لئلا يُقال: هو جاهلٌ... ونحوِ ذلك مما يظنُّه صغيرًا وهو عظيمٌ.

وأهونُ ما يَصْنَعُ ذلك بصاحبِهِ أن يَحُطَّهُ من مرتبةِ المتميِّزينَ بين الناسِ، ومن مقامِ رِفْعَةِ القَدْرِ عندَ الحقِّ.

قال بعضُ السلفِ: تسامحتُ بلُقمةٍ، فتناولتُها، فأنا اليوم من أربعين سنةً إلى خَلْفٍ.

فاللهَ اللهَ! اسمعوا ممَّنْ قد جرَّبَ! كونوا على مراقبةٍ! وانظُروا في العواقبِ! واعرِفوا عَظَمَةَ الناهي! واحذَروا من نفخةٍ تُحْتَقَرُ وشَرَرَةٍ تُسْتَصْغَرُ؛ فربما أحرقتْ بلدًا!

وهذا الذي أشرتُ إليه؛ يسيرٌ يَدُلُّ على كثيرٍ، وأنموذَجٌ يُعَرِّفُ باقي المحقَّراتِ من

الذُّنوبِ.

والعلمُ والمراقبةُ يُعَرِّفَانِكَ ما أخللتَ بِذِكْرِهِ، ويعلِّمانِك إن تلمَّحْتَ بعينِ البصيرةِ أثرَ شُؤمِ فعلِه، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ.

○○○○○

حقِّقِ التوبةَ ثم اسأل

رأيتُ من نفسي عَجبًا! تَسْأَلُ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجاتِها، وتنسى جِناياتِها!!

فقلتُ: يا نفسَ السَّوْء! أوَمثلُك يَنْطِقُ؟! فإنْ نَطَقَ؛ فينبغي أن يكونَ السؤالُ العفوَ فَحَسْبُ.

فقالت: فمِمَّنْ أطلُبُ مُراداتي؟!

قلتُ: ما أمنعُك من طلبِ الـمُرادِ، إنما أقولُ: حَقِّقي التوبةَ وانطِقِي؛ كما نقولُ في العاصي بِسَفَرِهِ إذا اضْطُرَّ إلى الـمَيْتَةِ: لا يجوزُ له أنْ يأكلَ. فإنْ قيلَ لنا: أفيموتُ؟! قُلنا: لا؛ بل يتوبُ ويأكُلُ.

فاللهَ اللهَ من جراءةٍ على طلب الأغراضِ مع نسيانِ ما تَقَدَّمَ من الذُّنوب التي توجِبُ تَنكيسَ الرأسِ، ولئنْ تشاغلتِ بإصلاحِ ما مضى والندمِ عليه؛ جاءتْكِ مراداتُكِ.

ثم العجبُ من سُؤَالاتِك! فإنكَ لا تكادُ تسألُ مهمًّا من الدُّنيا، بل فضولَ العيشِ، ولا تسألُ صَلاحَ القلبِ والدِّينِ مِثْلَ ما تسألُ صَلاحَ الدُّنيا.

فاعقلْ أمركَ؛ فإنَّكَ من الانبساطِ والغفلةِ على شَفَا جُرُفٍ[1]، ولْيَكُنْ حُزْنُكَ على زَلَّاتِكَ شاغِلًا لك عن مُراداتكَ؛ فقد كان الحسنُ البصريُّ شديدَ الخوفِ، فلما قيل له في ذلك؟ قال: وما يؤمِنُني أنْ يكونَ اطَّلَعَ على بعضِ ذُنُوبي فقالَ: اذهَبْ؛ لا غفرتُ لك؟!

○○○○○

---

(١) الـجُرف: شِقُّ الوادي إذا حَفَرَ الماءُ في أسفله.

المؤمن بين البلاء والرخاء

من عاشَ معَ الله - عزَّ وجلَّ - طَيِّبَ النفسِ في زمنِ السلامةِ؛ خِفْتُ عليه زمنَ البلاءِ؛ فهناك المحكُّ.

إنَّ المَلِكَ عزَّ وجلَّ بَيْنَا يبني نقضَ وبَيْنَا يُعطي سَلَبَ؛ فَطيبُ النفسِ والرضى هناك يَبِينُ.

فأما مَن تواصلتْ لديه النِّعمُ؛ فإنه يكونُ طَيِّبَ القلبِ لتواصُلِها؛ فإذا مَسَّتْهُ نفحةٌ من البلاءِ؛ فبعيدٌ ثباتُه.

قال الحسن البصريُّ: كانوا يتساوَوْنَ في وقتِ النِّعم؛ فإذا نزلَ البلاءُ؛ تباينوا.

فالعاقلُ من أعدَّ ذُخرًا، وحصَّل زادًا، وازداد من العُدَدِ؛ للقاءِ حَرْب البلاء.. ولابدَّ من لقاءِ البلاءِ، ولو لم يكنْ إلَّا عندَ صَرْعَةِ الموتِ؛ فإنها إن نزلتْ - والعياذُ بالله - فلم تجدْ معرفةً توجبُ الرِّضى أو الصبرَ؛ أخرجتْ إلى الكفرِ.

ولقد سمعتُ بعضَ من كنتُ أظنُّ فيه كَثْرَةَ الخيرِ وهو يقولُ في ليالي موتِه: ربي هو ذا يظلِمُني! فلم أزلْ منزعِجًا مهتمًّا بتحصيلِ عُدَّةٍ ألقى بها ذلك اليومَ.

كيف؛ وقد رُوِيَ أن الشيطانَ يقولُ لأعوانِهِ في تلك الساعةِ: عليكم بهذا؛ فإنْ فاتكم؛ فَلَم تقدِروا عليه؟!

وأيُّ قلبٍ يَثْبُتُ عند إمساكِ النَّفَسِ، والأخذِ بالكَظِم[1]، ونَزْع النَّفْس، والعلمِ بمفارقةِ المحبوباتِ إلى ما لا يَدْري ما هو، وليس في ظاهرِهِ إلَّا القبرَ والبلاءَ.

فنسألُ الله عزَّ وجلَّ يقينًا يَقِينا شرَّ ذلك اليوم.

○○○○○

---

(١) الكظم: مخرج النفس.

في شرفِ الصبرِ عن المعاصي

باللهِ عليكَ يا مرفوعَ القَدْرِ بالتَّقْوى؛ لا تَبعْ عِزَّها بذُلِّ المعاصي! وصابِرْ عَطَشَ الهوى في هَجِيرِ المشتَهَى وإن أمضَّ[١] وأرمضَ[٢]، تالله لولا صَبْرُ عُمَرَ؛ ما انبسطتْ يدُهُ بضَرْبِ الأرضِ بِالدِّرَّةِ.

باللهِ عليكَ؛ تَذَوَّقْ حلاوةَ الكفِّ عن المنهيِّ؛ فإنها شجرةٌ تُثْمِرُ عزَّ الدُّنيا وشرفَ الآخرةِ.

ومتى اشتدَّ عطشُك إلى ما تهوى؛ فابسُطْ أناملَ الرجاءِ إلى مَن عندَه الرِّيُّ الكاملُ.

باللهِ عليكَ؛ تَفكَّرْ فيمنْ قَطَعَ أكثرَ العُمُرِ في التقوى والطاعةِ، ثم عَرَضَتْ له فتنةٌ في الوقتِ الأخيرِ، كيف نَطَحَ مركبَهُ الجُرفُ فغرِقَ وقتَ الصعودِ!

قل لي: مَن أنت؟ وما عملُك؟ وإلى أيِّ مقام ارْتَفَعَ قَدْرُك؟ يا من لا يصبرُ لحظةً عما يشتهي!

باللهِ عليك؛ أتدري من الرجلُ؟! الرجلُ - والله - مَنْ إذا خَلَا بِما يُحِبُّ مِنَ الـمُحَرَّمِ، وَقَدَرَ عليهِ، وتَقَلْقَلَ عَطِشًا إليه؛ نَظَرَ إلى نَظَرِ الحَقِّ إِلَيْهِ، فاستحىَ من إجَالةِ همِّه فيما يكرهُه، فذهبَ العطشُ.

كأنَّك لا تتركُ لنا إلَّا ما لا تَشْتَهِي، أوْ ما لا تَصْدُقُ الشهوةَ فيه، أوْ ما لا تقدِرُ عليه!!

كذا والله عادتُك! إذا تَصدَّقْت؛ أعطيتَ كسرةً لا تَصلُحُ لك، أو في جماعةٍ يمدحونَك.

هيهاتَ! والله؛ لا نلتَ ولايَتنا حتى تكونَ معاملتُك لنا خالصةً، تبذُلُ أطايبَك، وتترُكُ مشتهياتِك، وتَصبِرُ على مكروهاتِك؛ علمًا منك - إن كنتَ معامِلًا - بأنَّك أجيرٌ وما غربتِ الشمسُ.

فإنْ كنتَ محبًّا؛ رأيتَ ذلك قليلًا في جنبِ رضى حبيبك عنكَ.

○○○○○

(١) أمضَّ: آلم.

(٢) أرمضَ: أحرق.

في حفظ الوقت

رأيتُ عُمومَ الخلائقِ يَدْفَعونَ الزَّمانَ دَفْعًا عجيبًا: إنْ طالَ الليلُ؛ فبحديثٍ لا ينفعُ، أو بقراءةِ كتابٍ فيه غَزَاةٌ وَسَمَرٌ! وإنْ طالَ النهارُ؛ فبالنومِ! وهم في أطرافِ النهارِ على دِجْلَةَ أوفي الأسواقِ! فشبَّهتُهم بالمتحدِّثين في سفينةٍ، وهي تجري بهم، وما عندَهُم خبرٌ!

ورأيتُ النادِرينَ قد فَهِموا معنى الوجودِ؛ فهم في تعبئةِ الزَّادِ والتأهُّبِ للرحيلِ؛ إلَّا أنهم يتفاوتونَ، وسببُ تفاوُتِهم قلةُ العلم وكثرتُه بما يَنْفَقُ[١] في بلدِ الإقامةِ[٢]:

فالمتيقِّظونَ منهم يتطلَّعونَ إلى الأخبارِ بالنَّافِقِ هناكَ، فيستكثرونَ منه، فيزيدُ رِبْحُهُم.

والغافلونَ منهم يحمِلونَ ما اتَّفَقَ، وربما خَرَجوا لا مع خفيرٍ؛ فكم ممَّنْ قد قُطِعَتْ عليه الطريقُ فبقيَ مفلِسًا!

فاللهَ اللهَ في مواسمِ العُمُرِ! والبدارَ البدارَ قبلَ الفَواتِ! واستَشْهِدوا العلمَ، واستدِلُّوا الحكمةَ، ونافِسوا الزمانَ، وناقشوا النفوسَ، واستظهِروا بالزَّادِ؛ فكأنْ قد حَدَا الحادي فلم يُفْهَمْ صوتُه من وَقْعِ دَمْعِ الندمِ.

○○○○○

لا تأمنْ مكرَ الله

سبحانَ الملكِ العظيم، الذي مَنْ عَرَفَهُ خافهُ، وما أمِنَ مكرَه قطُّ مَنْ عَرَفَهُ.

لقد تأمَّلتُ أمرًا عظيمًا: أنه عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حتَّى كأنَّه يُهْمِلُ، فترى أيدي العصاةِ مطلقةً كأنَّه لا مانعَ؛ فإذا زادَ الانبساطُ ولم تَرْعَوِ[٣] العقولُ؛ أخَذَ أَخْذَ جبَّارٍ.

وإنما كان ذلك الإمهالُ لِيَبْلُوَ صَبْرَ الصابر وَلِيُمْلِيَ في الإمهالِ للظالمِ، فيُثبِّتَ هذا على صَبْرِهِ، ويَجْزِيَ هذا بقبيحِ فعلِهِ.

○○○○○

---

(١) **ينفَق**: يروج.

(٢) **بلد الإقامة**: الدار الآخرة.

(٣) **ترعوي**: تنزجر وتتعظ.

كفى بالموت واعظًا

من أظرفِ الأشياءِ إفاقةُ الـمُحْتَضَرِ عندَ موتِه؛ فإنه ينتبهُ انتباهًا لا يوصَفُ، ويقلقُ قلقًا لا يُحَدُّ، ويتلهَّفُ على زمانِهِ الماضي، ويَوَدُّ لو تُرِكَ يتداركُ ما فاتَه ويَصْدُقُ في توبتِه على مقدارِ يقينِهِ بالموتِ، ويكادُ يَقْتُلُ نفسَه قبلَ موتِها بالأسفِ.

ولو وُجِدَتْ ذَرَّةٌ من تلك الأحوالِ في أوانِ العافيةِ؛ حَصَلَ كلُّ مقصودٍ من العملِ بالتقوى.

فالعاقلُ من مَثَّلَ تلكَ الساعةَ، وعَمِلَ بمقتضَى ذلك.

فإنْ لـم يتهيَّأ تصويرُ ذلك على حقيقتِه؛ تخايَلَهُ على قَدْرِ يَقَظَتِه؛ فإنه يَكُفُّ كَفَّ الهوى ويبعثُ على الجِدِّ.

فأما مَن كانت تلك الساعةُ نُصْبَ عينيهِ؛ كانَ كالأسيرِ لها.

كما رُوي عن حبيب العجميِّ: أنه كانَ إذا أصبحَ؛ يقولُ لامرأتِه: إذا مُتُّ اليومَ؛ ففلانٌ يغسِّلني، وفلانٌ يحمِلُني.

وقال معروفٌ لرجلٍ: صلِّ بنا الظُّهْرَ! فقالَ: إن صليتُ بكمُ الظُّهْرَ؛ لم أصلِّ بكمُ العصرَ. فقال: وكأنك تؤمِّلُ أنْ تعيشَ إلى العصرِ؟! نعوذُ بالله من طولِ الأملِ.

وَذَكَرَ رجلٌ رجلًا بينَ يديهِ بِغِيبةٍ، فجعلَ معروفٌ يقولُ له: اذكرِ القُطْنَ إذا وضعوه على عينيكَ!

ο ο ο ο ο

في اتقاءِ الشبهاتِ

أمكنني تحصيلُ شيءٍ من الدُّنيا بنوعٍ من أنواعِ الرُّخَصِ، فكنتُ كلَّما حَصَلَ شيءٌ منه؛ فاتني من قلبي شيءٌ، وكلَّما استنارتْ لي طريقُ التَّحْصيلِ؛ تجدَّدَ في قلبي ظلمةٌ.

فقلتُ: يا نفسَ السَّوْءِ! الإثم حَوَّازُ القلوبِ[1]، وقد قال ﷺ: «**اسْتَفْتِ قلبَكَ**»[2]؛ فلا خيرَ في الدُّنيا كلِّها إذا كانَ في القلبِ من تحصيلِها شيءٌ أوجبَ نوعَ كَدَرٍ، وإنَّ الجنةَ لو

(١) حواز القلوب: مالكها.

(٢) أحمد (١٧٥٤٠).

حَصَلتْ بسببٍ يقدَحُ في الدِّين أو في المعاملةِ؛ ما لَذَّتْ! والنومُ على المزابلِ مع سلامةِ القلبِ من الكَدَرِ ألذُّ من تَكِئاتِ الملوكِ.

وما زلتُ أغلِبُ نفسي تارةً وتغلِبُني أخرى، ثم تدَّعي الحاجةَ إلى تحصيلِ ما لا بدَّ لها منه، وتقولُ: فما أتعدَّى في الكسبِ المباحِ في الظاهرِ! فقلتُ لها: أو ليسَ الورعُ يمنعُ من هذا؟ قالتْ: بلى. قلتُ: أليستِ القسوةُ في القلبِ تَحْصُلُ به؟ قالتْ: بلى. قلتُ: فلا خيرَ لكِ في شيءٍ هذا ثمرتُه!

فخلوتُ يومًا بنفسي، فقلتُ لها:

ويحكِ! اسمعي أحدِّثْكِ! إنْ جمعتِ شيئًا من الدُّنيا من وجهٍ فيه شُبهةٌ؛ أفأنتِ على يقينٍ من إنفاقهِ؟! قالتْ: لا. قلتُ: فالمحنةُ أنْ يَحْظَى به الغيرُ، ولا تنالينَ إلَّا الكَدَرَ العاجلَ والوِزْرَ الذي لا يؤمَنُ.

ويحكِ! اتركي هذا الذي يمنَعُ منه الوَرَعُ لأجلِ الله فعامليه بتركِه.. وكأنك لا تريدينَ ألَّا تترُكي إلَّا ما هو محرمٌ فقط أو ما لا يصِحُّ وجهُه؟

أوَ ما سمعتِ أنَّ: «مَن ترَكَ شيئًا لله؛ عوَّضَهُ الله خيرًا منه»[1]؟!

أما لكِ عبرةٌ في أقوام جَمَعوا فحازَهُ سواهُم، وأمَّلوا فما بَلَغوا مُناهم؟! كم من عالمٍ جَمَعَ كُتُبًا كثيرةً ما انْتَفَعَ بها! وكم من منتفعٍ ما عندَه عشرةُ أجزاءٍ! وكم من طَيِّبِ العيشِ لا يملك دينارينِ! وكم من ذي قناطيرَ منغَّصٍ!

أما لكِ فطنةٌ تتلمَّحُ أحوالَ مَن يترخَّصُ من وجهٍ فيُسْلَبُ منه من أوجهٍ؟! ربما نَزَلَ المرضُ بصاحبِ الدَّارِ، أو ببعضِ مَن فيها، فأنفقَ في سنتِه أضعافَ ما ترخَّصَ في كسبِه، والمتَّقِي معافًى.

○○○○○

(١) أحمد (٥/ ٣٦٣)، والقضاعي في الشهاب (١١٣٥).

لابد من العمل والكسب

اجتهادُ العاقل فيما يُصْلِحُهُ لازمٌ له بمُقتضى العقل والشَّرع.

فمن ذلك حفظُ مالِه، وطلبُ تنميته، والرغبةُ في زيادتِه؛ لأن سببَ بقاءِ الإنسانِ مالُهُ.

فقد نُهِيَ عن التَّبْذيرِ فيه: فقيل لهُ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾؛ فأُعلم أنه سببٌ لبقائِه: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] أي: قوامًا لمعاشِكم. قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن فضيلةِ المال: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ [الفتح: ١٠].

وجعل المالَ نِعمةً، وزكاتَه تطهيرًا: فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال ﷺ: «**نِعْمَ المالُ الصالحُ للرَّجُلِ الصالحِ**»[1]، وقال: «ما نَفَعَني مالٌ كمالِ أبي بكرٍ»[2].

وكان أبو بكر ﷺ يخرجُ إلى التجارةِ ويترُكُ رسولَ الله ﷺ؛ فلا ينهاهُ عن ذلك.

وقال عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ: لأنْ أموتَ بين شُعْبَتَيْ جبلٍ أطلُبُ كفافَ وجْهي أحبُّ إليَّ من أن أموتَ غازيًا في سبيل الله.

وكان جماعةٌ من الصحابةِ رضي الله عنهم يَتَّجرونَ: ومن ساداتِ التابعينَ سعيدُ ابنُ المسيِّبِ؛ مات وخلَّفَ مالًا ... وما زال السلفُ على هذا.

ثم قد تَعْرِضُ نوائبُ - كالمرضِ - يُحتاجُ فيها إلى شيءٍ من المالِ، فلا يجدُ الإنسانُ بدًّا من الاحتيالِ في طِلْبَتِه، فيبذُلُ عِرْضَه أو دينَه.

ثم للنفسِ قوةٌ بدنيةٌ عند وجودِ المالِ، وهو معدودٌ عند الأطباءِ من الأدويةِ؛

---

(١) أحمد (١٧٣٠٩).

(٢) سبق تخريجه.

حِكْمَةً وَضَعَها الواضعُ.

ثم نبَغ أقوامٌ، طَلَبوا طريقَ الراحةِ، فادَّعَوا أنهم متوكِّلَةٌ، وقالوا: نحنُ لا نُمْسِكُ شيئًا، ولا نتزوَّدُ لسفرٍ، ورِزْقُ الأبدانِ يأتي!

وهذا على مضادَّةِ الشرع: فإنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن إضاعةِ المالِ[1]، وموسى عليه السلامُ لما سافرَ في طَلَبِ الخَضِرِ تزوَّدَ[2]، ونبيُّنا ﷺ لما هاجر تزوَّدَ، وأبلغُ من هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم يدَّعي هؤلاءِ المتصوِّفةُ بُغْضَ الدُّنيا؛ فلا يفهمونَ ما الذي ينبغي أن يُبْغَضَ.

وفي الجملةِ؛ إنَّما اخْتَرَعوا بآرائِهم طريقًا: فيها شيءٌ من الرَّهْبانِيَّةِ إذا صَدَقوا، وشيءٌ من البَهْرَجَةِ إذا نَصَبوا شباكَ الصيدِ بالتزَهُّدِ! فَسَمَّوْا ما يَصِلُ إليهم من الأرزاقِ فُتوحًا!!

والعجبُ ممَّنْ يَذُمُّ الدُّنيا وهو يأكلُ فيشبعُ ولا ينظُرُ من أينَ الـمَطْعَمُ!

وما زالَ صالحو السلفِ يفتِّشونَ عنِ الـمَطْعَمِ: حتى كان إبراهيمُ بن أدهمَ يَسْهَرُ هو وأصحابُهُ ويقولونَ: مع مَن نَعْمَلُ غدًا. وكان سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يُعْرَف بطيبِ الغذاءِ، وله في الورع مقاماتٌ.

فجاءَ قوم يتسَمَّوْنَ بالصُّوفِيَّةِ، يدَّعون اتِّباعَ أولئك السادةِ، ويأكُلونَ من مالِ فلانٍ وهم يعرفونَ أصولَ تلكَ الأموالِ، ويقولونَ: رُزِقْنا!

○○○○○

تــأمــلاتٌ

عَرَضَ لي في طريقِ الحجِّ خوفٌ من العربِ، فسِرْنَا على طريقِ خَيْبَرَ، فرأيتُ من الجبالِ الهائلةِ والطُّرقِ العجيبةِ ما أذهلني، وزادتْ عَظَمَةُ الخالقِ عزَّ وجلَّ في صَدْرِي، فصارَ يَعْرِضُ لي عند ذِكْرِ تلكَ الطُّرُقِ نوعُ تعظيمٍ لا أجِدُه عند ذِكْرِ غيرِها.

فصحتُ بالنفسِ: ويحكِ! اعْبُرِي إلى البحرِ، وانظُرِي إليه وإلى عجائبِه بعينِ الفِكْرِ؛

---

(١) البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (١٣١٤).

(٢) يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، كما في حديث الهجرة الذي رواه البخاري (٣٩٠٥).

تشاهدي أهوالًا هي أعظمُ من هذه.

ثم اخرُجي إلى الكونِ والتفتي إليه؛ فإنَّكِ تَرَيْنَهُ بالإضافةِ إلى السماواتِ والأفلاكِ كَذَرَّةٍ في فَلاةٍ.

ثم جُولي في الأفلاكِ، وطوفي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجِنانِ والنيرانِ.

ثم اخرُجي عن الكُلِّ، والتفتي إليه؛ فإنكِ تشاهدينَ العالمَ في قَبْضَةِ القادِرِ الذي لا تَقِفُ قدرتُهُ عند حدٍّ.

ثم التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتَكِ ونهايتَكِ، وتفكَّري فيما قبلَ البدايةِ، وليس إلَّا العدمُ، وفيما بعدَ البِلَى، وليس إلَّا الترابُ.

فكَيفَ يأنَسُ بهذا الوجودِ مَن نَظَرَ بعينِ فِكْرِهِ المبدأَ والمنتهَى؟!

وكيفَ يَغْفَلُ أربابُ القلوبِ عن ذِكْرِ هذا الإلهِ العظيمِ؟!

باللهِ؛ لو صَحَتِ النفوسُ عن سُكْرِ هَواها؛ لذابَتْ من خَوْفِهِ، أو لغابتْ في حُبِّهِ؛ غيرَ أنَّ الحِسَّ غَلَبَ، فَعَظُمَتْ قدرةُ الخالقِ عند رؤيةِ جبلٍ، وإنَّ الفِطْنَةَ لو تَلمَّحَتِ المعانِيَ؛ لَدَلَّتِ القدرةُ عليه أوفى من دليلِ الجبلِ.

سبحانَ من شَغَلَ أكثرَ الخَلْقِ بما هُم فيه عما خُلِقوا له! سبحانَه!

ο ο ο ο ο

للبلاءِ نهايةٌ

للبلاءِ نهاياتٌ معلومةُ الوقتِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فلا بدَّ للمُبْتَلَى مِن الصَّبْرِ إلى أن يَنْقَضِيَ أوانُ البلاءِ؛ فإن تَقَلْقَلَ قبل الوقتِ؛ لَم ينفعِ التقلقلُ؛ فاستعجالُ زوالِ البلاءِ مع تقدير مدتِه لا ينفعُ.

فالواجبُ الصبرُ، وإن كانَ الدُّعاءُ مشروعًا، ولا يَنْفَعُ إلَّا به.

إلَّا أنه لا ينبغي للداعي أنْ يستعجلَ، بل يتعبَّدُ بالصبرِ والدُّعاءِ والتسليمِ إلى الحكيمِ، ويَقْطَعُ الموادَّ التي كانتْ سببًا للبلاءِ؛ فإنَّ غالبَ البلاءِ أنْ يكونَ عُقوبةً.

فأما المستعجلُ، فمزاحِمٌ للمدبِّرِ، وليس هذا مقامَ العبوديَّةِ، وإنما المقامُ الأعلى هو الرِّضى.

والصبرُ هو اللازمُ، والتَّلافي بكَثْرَةِ الدعاءِ نِعْمَ المعتمدُ، والاعتراضُ حرامٌ، والاستعجالُ مزاحمةٌ للتدبيرِ.

فافهمْ هذه الأشياءَ؛ فإنَّها تهوِّنُ البَلاءَ.

○○○○○

لا تستعجل إجابة الدعاء

ينبغي لمن وَقَعَ في شدَّةٍ ثم دعا أنْ لا يَخْتَلِجَ في قلبِه أمرٌ من تأخيرِ الإجابةِ أو عدمِها؛ لأن الذي عليه أنْ يَدْعُو، والمدعوُّ مالكٌ حكيمٌ؛ فإنْ لم يُجِبْ؛ فَعَلَ ما يشاءُ في مُلْكِهِ، وإنْ أخَّر؛ فَعَلَ بمقتضى حِكْمَتِهِ؛ فالمعترِضُ عليه في سرِّه خارجٌ عن صفةِ عبدٍ، مزاحمٌ لمرتبةٍ مستحِقٍّ!

ثم ليَعْلَمْ أنَّ اختيارَ اللهِ عزَّ وجلَّ له خيرٌ من اختيارِه لنفسِه.

فربَّما سأَلَ سَيْلًا سال به[1]!

فإذا سَلَّمَ العبدُ تحكيمًا لِحِكْمتِهِ وحُكْمِهِ، وأيقَنَ أنَّ الكلَّ مُلْكُهُ؛ طابَ قلبُه؛ قُضِيَت حاجتُه أوْ لم تُقْضَ.

وفي الحديث: «**ما مِنْ مسلمٍ دعا اللهَ تعالى إلَّا أجابَهُ: فإمَّا أنْ يُعَجِّلَها، وإمَّا أنْ يُؤَخِّرَها، وإما أنْ يَدَّخِرَها له في الآخرةِ**»[2].

فإذا رأى يومَ القيامةِ أنَّ ما أجيبَ فيه قد ذَهَبَ، وما لم يُجَبْ فيه قد بَقِيَ ثوابُه؛ قال: ليتَك لم تُجِبْ لي دعوةً قَطُّ.

فافهمْ هذه الأشياءَ! وسلِّمْ قَلْبَكَ من أن يَخْتَلِجَ فيه رَيْبٌ أو استعجالٌ.

○○○○○

(١) أي ربما سأل شيئًا أضرَّ به وأغرقه.

(٢) أحمد (٩٤٩٣).

في علوّ الهمة

مَن أعْمَلَ فِكْره الصافي؛ دلَّهُ على طلبِ أشرفِ المقاماتِ، ونهاه عن الرِّضى بالنقصِ في كلِّ حالٍ.

وقد قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي:

وَلَـمْ أرَ في عُيوبِ الناسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القادِرينَ على التَّمامِ

فَيَنْبَغِي للعاقلِ أن يَنْتَهِيَ إلى غايةِ ما يمكِنُه: فلو كانَ يُتَصَوَّرُ للآدميِّ صعودُ السماواتِ؛ لرأيتُ من أقبحِ النقائصِ رضاهُ بالأرضِ، ولو كانت النبوةُ تَحْصُلُ بالاجتهادِ؛ رأيتُ المقصِّرَ في تحصيلها في حضيضٍ؛ غيرَ أنه إذا لم يمكنْ ذلك؛ فينبغي أن يَطْلُبَ الممكِنَ، والسِّيرةُ الجميلةُ عند الحكماءِ: خروجُ النفسِ إلى غايةِ كمالِها الممكنِ لها في العلمِ والعملِ.

وأنا أشرحُ من ذلك ما يَدُلُّ مذكورُهُ على مُغْفَلِهِ:

أما في البدنِ؛ فليست الصُّورةُ داخلةً تحتَ كَسْبِ الآدميِّ، بل يدخُلُ تحتَ كَسْبِهِ تحسينُها وتزيينُها؛ فقبيحٌ بالعاقلِ إهمالُ نفسِهِ.

وقد نَبَّهَ الشرعُ على الكلِّ بالبعضِ؛ فأمر بِقَصِّ الأظفارِ، ونتفِ الإبطِ، وحَلْقِ العانةِ، ونهى عن أكلِ الثُّومِ والبَصَلِ النَّيِّىءِ؛ لأجلِ الرائحة.

وينبغي له أن يقيسَ على ذلك ويَطْلُبَ غايةَ النظافةِ ونهايةَ الزِّينةِ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يُعْرَفُ مجيئُهُ بريحِ الطِّيبِ، فكانَ الغايةَ في النظافةِ والنَّزاهةِ.

ولستُ آمرُ بزيادة التقشُّفِ الذي يستعملُه الـمُوَسْوَسُ، ولكنَّ التوسُّطَ هو المحمودُ.

ثم ينبغي له أن يَرْفُقَ ببدنِهِ الذي هو راحلتُهُ، ولا يَنقُصَ من قُوتِها، فَتَنْقُصَ قوَّتُها.

ولستُ آمرُ بالشِّبَعِ الذي يوجِب الجُشاءَ، إنما آمر بالتوسُّطِ؛ فإنَّ قُوَى الآدميِّ كعينٍ جاريةٍ؛ كم فيها من منفعةٍ لصاحِبِها ولغيرِهِ.

وينبغي له أن يجتهدَ في التجارةِ والكَسْبِ؛ لِيُفْضِلَ على غيرِهِ، ولا يُفْضِلُ غيرُهُ عليهِ، ولِيَبلُغْ من ذلك غايةً لا تمنعُهُ عن العلمِ.

ثم ينبغي له أن يَطْلُبَ الغايةَ في العلمِ، ومن أقبحِ النَّقْصِ التقليدُ؛ ثم ينبغي أن يَطْلُبَ الغايةَ في معرفةِ الله تعالى ومعاملتِهِ.

وفي الجملةِ؛ لا يَتْرُكُ فضيلةً يمكنُ تحصيلُها إلّا حصَّلها؛ فإنَّ القنوعَ[١] حالةُ الأراذلِ.

فكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ في الثَّرَى　　وهـامَـةُ هِمَّتِـهِ فـي الثُّـرَيَّا

ولو كانت أمكنكَ عُبورُ كلِّ أحدٍ من العلماءِ والزُّهَّادِ؛ فافعلْ؛ فإنَّهم كانوا رِجالًا وأنت رجلٌ، وما قَعَدَ من قَعَدَ إلّا لدناءةِ الهِمَّةِ وخَساسَتِها.

واعلمْ أنكَ في مَيْدَانِ سباقٍ، والأوقاتُ تُنْتَهَبُ.

ولا تَخْلُدْ إلى كسَلٍ؛ فما فاتَ ما فاتَ إلّا بالكسَلِ، ولا نال مَن نال إلّا بالجِدِّ والعزمِ، وإنَّ الهِمَّةَ لتغلي في القلوبِ غَلَيَانَ ما في القدورِ.

وقد قال بعضُ من سَلَفَ:

ليس لي مالٌ سوى كَرَمِي　　فبه أحيا من العَدَمِ
قَنِعَتْ نفسي بما رُزِقَتْ　　وَتَمَطَّتْ في العُلا هِمَمي

ooooo

من عجائب البشر

رأيتُ كثيرًا من الناسِ يتحرَّزونَ من رَشَاشِ نَجَاسةٍ، ولا يتحاشَوْنَ مِن غيبةٍ! ويكثِرونَ من الصَّدَقَةِ، ولا يُبالونَ بمعاملاتِ الرِّبا! ويتهجَّدونَ بالليلِ، ويؤخِّرونَ الفريضةَ عن الوقتِ في أشياءَ يطولُ عددُها؛ من حِفْظِ فروعٍ وتضييعِ أصولٍ.

فبحثتُ عن سببِ ذلك؟ فوجدتُه من شيئين:

أحدُهما: العادةُ.

والثاني: غَلَبَةُ الهوى في تحصيلِ المطلوبِ؛ فإنه قد يَغْلِبُ؛ فلا يَتْرُكُ سَمْعًا ولا بصرًا.

ومن هذا القبيلِ: أنَّ إخوةَ يوسُفَ قالوا - حينَ سَمِعوا صوتَ المُنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] -: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف ٧٣]، فجاء في التفسير: أنَّهم لما دخلوا مصرَ؛ كمَّموا أفواهَ إبلِهم؛ لئلا تتناولَ ما ليسَ لهم، فكأنَّهم قالوا: قد رأيتُم ما صَنَعْنَا بإبلِنا؛ فكيفَ نَسْرِقُ؟! ونَسوا هم تفاوتَ ما بين الورعِ من

---

(١) القُنوع: الرضى باليسير من الفضائل.

اختطافِ أكلةٍ لا يملِكُونها وبينَ إلقاءِ يوسُفَ عليه السلامُ في الجُبِّ وبيعِهِ بثمنٍ بَخْسٍ!!

وفي الناس مَن يُطيعُ في صغارِ الأمورِ دونَ كبارِها، وفيما كُلْفَتُهُ عليه خفيفةٌ أو معتادةٌ، وفيما لا يَنْقُصُ شيئًا من عادتِهِ في مَطْعَمٍ ومَلْبَسٍ.

حتَّى إنِّي رأيتُ رجلًا من أهلِ الخيرِ والتعبُّدِ، أعطاهُ رجلٌ مالًا ليبنيَ به مسجدًا، فأخَذَهُ لنفسِهِ، وأنفَقَ عِوَضَ الصحيحِ قُراضةً[1]، فلما احْتُضِرَ؛ قال لذلك الرجلِ: اجعلْني في حِلٍّ؛ فإني فعلتُ كذا وكذا!

ونرى أقوامًا يَتْرُكونَ الذُّنوبَ لبعدِهم عنها؛ فقد ألِفوا التَّرْكَ، وإذا قَرُبوا منها؛ لم يتمالَكُوا. وفي الناس من هذه الفنون عجائبُ يطولُ ذِكْرُها.

وقد عَلِمْنَا أن خَلْقًا من علماءِ اليهودِ كانوا يحمِلونَ ثِقَلَ التعبُّدِ في دينِهم، فلما جاء الإسلامُ، وعَرَفوا صحَّتَه؛ لم يُطيقوا مقاومةَ أهوائِهم في محْوِ رياستِهم.

فينبغي للعاقل أن يَحْذَرَ شياطينَ الهوى، وأن يكون بصيرًا بما يَقْوى عليهِ من أعدائِهِ، وبمَنْ يَقْوى عليه.

○○○○○

مراقبةُ اللهِ في الخَلواتِ

إنَّ للخَلْوَةِ تأثيراتٍ تَبينُ في الجَلْوةِ.

كم من مؤمنٍ باللهِ عزَّ وجلَّ، يحترِمُهُ عند الخَلَواتِ، فيترُكُ ما يَشْتَهي حَذَرًا من عِقابِهِ، أو رجاءً لثوابِه، أو إجلالًا له، فيكون بذلك الفعل كأنه طَرَحَ عودًا هنديًّا على مِجْمَرٍ، فَيَفُوحُ طيبُهُ، فيستنشِقُهُ الخلائقُ، ولا يدرونَ أين هُو؟

وعلى قَدْرِ المجاهدةِ في تركِ ما يهوَى تَقْوَى محبَّتُهُ، أو على مقدارِ زيادةِ دَفعِ ذلك المحبوبِ المتروكِ يزيدُ الطيبُ، ويتفاوتُ تفاوتَ العودِ.

فترى عيونَ الخَلْقِ تُعَظِّمُ هذا الشخصَ، وألسنتُهم تمدحُهُ، ولا يعرِفونَ لـمَ؟ ولا يقدِرونَ على وصفِهِ: لبعدِهم عن حقيقةِ معرفتِهِ.

وقد تمتدُّ هذه الأراييحُ بعد الموتِ على قَدْرِها؛ فمنهُم مَنْ يُذْكَرُ بالخيرِ مدَّةً مديدةً

---

(١) القراضة: الشيء اليسير.

ثم يُنْسَى، ومنهم من يُذْكَرُ مئةَ سنةٍ ثم يَخْفَى ذِكْرُهُ، ومنهم أعلامٌ يبقى ذِكْرُهُم أبدًا.

وعلى عكس هذا من هاب الخَلْقَ ولم يحترِمْ خَلْوَتَهُ بالحقِّ؛ فإنَّه على قَدْرِ مبارزتِه بالذُّنوبِ، وعلى مقاديرِ تلكَ الذُّنوبِ؛ يفوحُ منه ريحُ الكراهةِ، فتَمْقُتُهُ القلوبُ: فإنْ قَلَّ مقدارُ ما جَنَى؛ قَلَّ ذِكْرُ الألسنِ له بالخيرِ، وبقي مجرَّدُ تعظيمِه. وإن كثُرَ؛ كان قُصارَى الأمرِ سكوتَ الناسِ عنه؛ لا يمدحونَه ولا يذمُّونَه.

وربَّ خالٍ بذنبٍ كانَ سببَ وقوعِهِ في هُوَّةِ شِقْوَةٍ في عَيْشِ الدُّنيا والآخِرةِ، وكأنَّه قيلَ له: ابقَ بما آثرتَ! فيبقى أبدًا في التخْبيطِ.

فانظروا إخواني إلى المعاصي أثَّرَتْ وعَثَّرَتْ.

قال أبو الدَّرداء ﷺ: إن العبدَ لَيَخْلو بمعصيةِ الله تعالى، فيُلْقِي اللهُ بُغْضَهُ في قلوبِ المؤمنينَ من حيثُ لا يشعُرُ.

فتلمَّحوا ما سَطَّرْته، واعرِفوا ما ذَكَرْتُهُ، ولا تُهمِلوا خَلَواتِكم ولا سَرائِرَكُمْ؛ فإنَّ الأعمالَ بالنِّيَّةِ، والجزاءَ على مقدارِ الإخلاصِ.

ooooo

نصائحُ لطالبِ العلمِ

اعلمْ أنَّ المتعلمَ يَفْتَقِرُ إلى دوام الدِّراسةِ، ومن الغلطِ الانهماكُ في الإعادةِ ليلًا ونهارًا؛ فإنه لا يَلْبَثُ صاحبُ هذه الحال إلَّا أيامًا، ثم يَفْتُرُ أو يَمْرَضُ.

ومن الغلطِ تحميلُ القلبِ حِفْظَ الكثيرِ من فنونٍ شتّى؛ فإنَّ القلبَ جارحةٌ من الجوارح، وكما أنَّ من الناسِ مَن يَحْمِلُ المئةَ رطلٍ ومنهم من يَعْجِزُ عن عشرينَ رطلًا؛ فكذلك القلوبُ.

فليأخُذِ الإنسانُ على قَدْرِ قوَّتِهِ ودونَها؛ فإنَّه إذا اسْتَنْفَدَها في وقتٍ؛ ضاعتْ منه أوقاتٌ؛ كما أنَّ الشَّرِهَ يأكلُ فَضْلَ لُقَيْماتٍ، فيكونُ سببًا إلى منع أكَلاتٍ! والصوابُ أنْ يأخُذَ قَدْرَ ما يُطيقُ، ويعيدَه في وقتينِ من النهارِ والليلِ، ويرفِّهَ القُوى في بَقِيَّةِ الزَّمانِ.

والدوامُ أصلٌ عظيمٌ؛ فكم ممَّنْ تَرَكَ الاستذكارَ بعد الحفظِ، فضاعَ زمنٌ طويلٌ في استرجاعِ محفوظٍ!

وللحِفْظِ أوقاتٌ من العُمُرِ؛ فأفضلُها: الصِّبا، وما يقارِبُه من أوقاتِ الزمانِ، وأفضلُها: إعادةُ الأسحارِ وأنصافِ النهارِ، والغَدَواتُ خيرٌ من العَشِيَّاتِ، وأوقاتُ الجوعِ خيرٌ من أوقاتِ الشِّبَعِ.

والخَلْوَةُ أصلٌ. وجَمْعُ الهمِّ أصلُ الأصولِ.

وتَرْفِيهُ النفس من الإعادة يومًا في الأسبوع؛ لِيَثْبُتَ المحفوظُ، وتأخُذَ النفسُ قوةً؛ كالبنيانِ يُتْرَكُ أيامًا حتى يَسْتَقِرَّ، ثم يُبْنَى عليه.

وتقليلُ المحفوظِ مع الدَّوامِ أصلٌ عظيمٌ.

وأنْ لا يَشْرَعَ في فنٍّ حتى يُحْكِمَ ما قبلَه.

ومَن لم يَجِدْ نشاطًا للحفظِ؛ فلْيَتْرُكْهُ؛ فإنَّ مكابرةَ النفسِ لا تَصْلُحُ.

وإصلاحُ المِزاجِ من الأصولِ العظيمةِ؛ فإنَّ للمأكولاتِ أثرًا في الحفظ.

قال الزُّهريُّ: ما أكلتُ خَلًّا منذُ عالجتُ الحفظَ.

وقيل لأبي حنيفة: بم يُستعانُ على حفظِ الفقهِ؟ قال: بِجَمْعِ الهمِّ.

وقال حمادُ بن سلمةَ: بِقِلَّةِ الغَمِّ.

وقال مكحولٌ: مَن نَظَّفَ ثوبَه؛ قَلَّ همُّه، ومن طابتْ رِيحُهُ؛ زادَ عقلُهُ، ومَن جَمَعَ بينَهما؛ زادتْ مروءتُه.

ثم لْيَنْظُرْ ما يَحْفَظُ من العلم؛ فإنَّ العُمُرَ عزيزٌ والعلمَ غزيرٌ، وإنَّ أقوامًا يصرفونَ الزمانَ إلى حفظِ ما غيرُهُ أولى منه، وإن كانَ كلُّ العلوم حَسَنًا، ولكنَّ الأولى تقديمُ الأهمِّ والأفضل.

وأفضلُ ما تُشوغِلَ به حفظُ القرآنِ، ثم الفقهُ، وما بعدَ هذا بمنزلةِ تابع.

ومَنْ رُزِقَ يَقَظَةً؛ دَلَّتْهُ يَقَظَتُهُ فلم يحتَجْ إلى دليلٍ.

ومَن قَصَدَ وجهَ الله تعالى بالعلمِ؛ دَلَّهُ المقصودُ على الأحسنِ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

○○○○○

في التقوى دوام العافية

من أرادَ العافيةَ والسلامةَ؛ فلْيَتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فإنه ما من عبدٍ أطْلَقَ نفسَه في شيءٍ ينافي التقوى، وإنْ قَلَّ؛ إلَّا وجَدَ عُقوبتَه عاجلةً أو آجلةً.

ومن الاغترار أنْ تسيءَ، فترى إحْسَانًا، فَتَظُنَّ أنَّكَ قد سُومِحْتَ، وتنسى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما قالتِ النفسُ: إنه يَغْفِرُ، فَتَسَامَحْتَ! ولا شكَّ أنه يَغْفِرُ، ولكنْ لمن يشاءُ.

واعلمْ أنه من أعظم المِحَنِ الاغترارُ بالسَّلامةِ بعد الذَّنْبِ؛ فإنَّ العقوبةَ تتأخَّرُ.

ومن أعظمِ العقوبةِ أنْ لا يُحِسَّ الإنسانُ بها، وأن تكونَ في سَلْبِ الدِّينِ، وطَمْسِ القلوب، وسوء الاختيارِ للنفسِ؛ فيكونُ من آثارِها سلامةُ البَدَنِ وبلوغُ الأغراضِ.

قال بعضُ المعتبرين: أطلقتُ نظري فيما لا يَحِلُّ لي، ثم كنتُ أَنْتَظِرُ العقوبةَ، فألجِئْتُ إلى سفرٍ طويلٍ لا نِيَّةَ لي فيه، فلقيتُ المشاقَّ، ثم أعقبَ ذلك موتَ أعزِّ الخَلْقِ عندي، وذهابَ أشياءَ كانَ لها وقعٌ عظيمٌ عندي، ثم تلافَيْتُ أمري بالتوبةِ، فَصَلَحَ حالي، ثم عادَ الهوى، فحَمَلَني على إطلاقِ بَصَري مرةً أخرى، فَطُمِسَ قلبي، وَعَدِمْتُ رِقَّتَهُ، واسْتُلِبَ مني ما هو أكثرُ من فقدِ الأولِ، ووقع لي تعويضٌ عنِ المفقودِ بما كانَ فقدُهُ أصلحُ.

فلمَّا تأمَّلْتُ ما عُوِّضْتُ وما سُلِبَ مني؛ صِحْتُ من ألم تلكَ السِّياطِ؛ فها أنا أنادي مَن على الساحلِ:

إخواني! احذَروا لُجَّةَ هذا البحرِ، ولا تغترُّوا بسكونِهِ، وعليكم بالساحِلِ، ولازموا حِصْنَ التَّقْوَى؛ فالعقوبةُ مُرَّةٌ.

واعْلَموا أنَّ في ملازمةِ التَّقْوى مراراتٍ من فقدِ الأغراضِ والمشتَهَياتِ؛ غيرَ أنها في ضَرْبِ الـمَثَلِ كالحِمْيَةِ تُعْقِبُ صِحَّةً، والتخليطُ ربما جَلَبَ موتَ الفجأةِ.

وباللهِ؛ لو نِمتُم على المزابلِ مع الكلابِ في طَلَبِ رضَى المبتلي؛ كان قليلًا في نَيْلِ رِضاه، ولو بَلَغْتُمْ نهايةَ الأماني من أغراض الدُّنيا؛ مع إعراضِهِ عنكُم؛ كانتْ سلامتُكم هلاكًا، وعافيتُكم مَرَضًا، وصِحَّتُكُم سَقَمًا. والأمرُ بآخِرِه، والعاقلُ مَن تَلَمَّحَ العواقبَ.

○○○○○

إياك والوقوعَ في فخِّ الدنيا

الدنيا فخٌّ، والجاهلُ بأولِ نظرةٍ يقعُ، فأمَّا العاقلُ المتَّقي؛ فهو يصابِرُ المجاعَةَ، ويدورُ حولَ الحَبِّ، والسلامةُ بعيدةٌ؛ فكم من صابرٍ اجتهدَ سنينَ ثم في آخرِ الأمرِ وَقَعَ!

فالحذرَ الحذرَ؛ فقد رأينا مَن كانَ على سَنَنِ الصَّوابِ، ثم زَلَّ على شَفِيرِ القبرِ(١).

ooooo

انتبه لنفسك

اعلموا – إخواني ومَن يَقْبَلُ نصيحتي! – أنَّ للذنوبِ تأثيراتٍ قبيحةً، ومرارتُها تزيدُ على حلاوتِها أضعافًا مضاعفةً، والـمُجازِي بالمرصادِ؛ لا يَسْبِقُهُ شيءٌ، ولا يفوتُه.

فوا عجبًا للمغالطِ نفسَه! يُرْضِي نفسَه بشهوةٍ، ثم يُرضِي ربَّهُ بطاعةٍ، ويقولُ: حسنةٌ وسيئةٌ!

ويحكَ! من كيسكَ تُنْفِقُ، ومِنْ بِضاعَتِكَ تَهْدِمُ، ووَجْهَ جاهِكَ تَشينُ! رُبَّ جراحةٍ قَتَلَتْ، وربَّ عَثْرَةٍ أهلكتْ، وربَّ فارطٍ لا يُسْتَدْرَكُ.

ويحكَ! انتبهْ لنفسِكَ، ما الذي تنتظرُ بأَوْبَتِك؟ وماذا تَتَرَقَّبُ بِتَوْبَتِكَ؟ المشيبَ؟ فها هو ذا أوهنَ العظمَ! وهل بعدَ رحيلِ الأهلِ والأولادِ والأقاربِ إلَّا اللحاقُ؟!

قَدِّرْ أنَّ ما تُؤمِّلُهُ من الدُّنيا قد حَصَلَ، فكانَ ماذا؟! إمَّا هو عاجلٌ؛ فَشَغَلَكَ عاجلًا، ثم آخِرُ جُرْعَةِ اللَّذَّةِ شَرْقَةٌ! وإمَّا أنْ تُفارقَ محبوبَك أو يفارقَكَ. فيا لَها جرعةٌ مريرةٌ تَوَدُّ عندَها أنْ لو لم تَرَه!

آهِ لمحجوبِ العقلِ عن التأمُّلِ، ولـمَصْدودٍ عن الوُرودِ وهو يرى الـمَنْهَلَ! أما في هذه القبورِ نذيرٌ؟! أما في كُرورِ الزَّمانِ زاجرٌ؟! أين مَنْ مَلَكَ وبَلَغَ الـمُنَى فيها أمَّلَ؟!

بأيِّ وَجْهٍ تَلْقَى رَبَّك؟! أيُساوي ما تنالُه من الهوى لفظَ عتابٍ؟!

باللهِ؛ إنَّ الرحمةَ بعد المعاتبةِ ربها لم تَسْتَوْفِ قَلْعَ البُغْضَةِ من صَميمِ القلبِ؛ فكيفَ إن أعقبَ العتابَ عقابٌ؟!

---

(١) شفير القبر: حَرْفه وناحيته. والمعنى أنه زلّ قبل موته ومات على الزلل والعياذ بالله.

ففروا إلى الله

ضاق بي أمرٌ أوجبَ غمًّا لازِمًا دائمًا، وأخذتُ أبالغُ في الفِكْرِ في الخلاصِ. من هذه الهمومِ بكلِّ حِيلةٍ وبكلِّ وجهٍ؛ فما رأيتُ طريقًا للخلاصِ، فعَرَضَتْ لي هذه الآيةُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمتُ أنَّ التَّقوى سببٌ للمخرجِ من كلِّ غمٍّ، فما كان إلَّا أنْ هَمَمْتُ بتحقيقِ التقوى، فوجدتُ المخرجَ.

فلا ينبغي لمخلوقٍ أنْ يَتوَكَّلَ أو يَتَسَبَّبَ أو يَتَفَكَّرَ إلَّا في طاعةِ الله تعالى وامتثالِ أمره؛ فإنَّ ذلك سببٌ لفتحِ كلِّ مُرْتَجٍ[1].

ثم أعجبُهُ أنْ يكونَ من حيثُ لم يُقَدِّرِ الـمُتَفَكِّرُ المحتالُ الـمُدَبِّرُ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتَّقي أن يعلمَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ كافِيه؛ فلا يُعَلِّقُ قلبَه بالأسبابِ؛ فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

○○○○○

طولُ الأملِ وقِصَرُه

يجبُ على مَن لا يدري متى يَبْغَتُه الموتُ أن يكونَ مستعدًّا، ولا يغترَّ بالشبابِ والصِّحَّةِ؛ فإنَّ أقلَّ مَن يموتُ الأشياخُ، وأكثرَ من يموتُ الشبابُ، ولهذا يَنْدُرُ مَنْ يَكْبَرُ، وقد أنشدوا:

يُعَمَّـرُ واحــدٌ فَيَغُرُّ قــوْمًا ... ويُنْسَى مَنْ يموتُ مِنَ الشَّبابِ

ومن الاغترارِ طولُ الأملِ، وما من آفةٍ أعظمُ منهُ؛ فإنَّه لولا طولُ الأملِ؛ ما وَقَعَ إهمالٌ أصلاً، وإنَّما يُقَدِّمُ المعاصي ويؤخِّرُ التوبةَ؛ لطولِ الأملِ، وتُبادَرُ الشَّهَواتُ، وتُنْسَى الإنابةُ؛ لطولِ الأملِ.

وإنْ لم تستطعْ قِصَرَ الأملِ؛ فاعملْ عَمَلَ قصيرِ الأمل: ولا تُمْسِ حتى تَنْظُرَ فيما مَضَى من يومِك؛ فإنْ رأيتَ زَلَّةً؛ فامْحُها بتوبةٍ، أو خَرْقًا؛ فارْقَعْهُ باستغفارٍ. وإذا أصبحتَ؛

---

(١) مرتجّ: مغلق.

فتأمَّلْ ما مضَى في ليلِكَ. وإياكَ والتسويفَ؛ فإنه أكبرُ جنودِ إبليسَ:

وخُـذْ لَـكَ مِـنْكَ على مُهْلَةٍ ... ومُـقـبِـلُ عَيْشِـكَ لـم يُدْبِرِ
وخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيلُ العِثارَ ... وَتَطْوِي الوُرودَ على المَصْدَرِ
وَمَثِّلْ لِنَفْسِـكَ أيُّ الرَّعيل ... يَضُمُّـكَ فـي حَلْبَةِ المَحْشَرِ

ثم صَوِّرْ لنفسِك قِصَرَ العُمُرِ، وكَثْرَةَ الأشغالِ، وقُوَّةَ الندمِ على التَّفْرِيطِ عند الموتِ، وطولَ الحسرةِ على البدارِ بعدَ الفَوْتِ.

وَصَوِّرْ ثوابَ الكاملينَ وأنت ناقصٌ، والمجتهدينَ وأنتَ متكاسِلٌ.

ولا تُخْلِ نَفْسَكِ من موعظةٍ تَسْمَعُها، وفِكْرَةٍ تحادثُها بها؛ فإنَّ النفسَ كالفَرَسِ المُتَشَيْطِنِ: إنْ أَهْمَلْتَ لِجامَه؛ لم تأمنْ أن يَرْمِيَ بك.

وقد واللهِ دنَّسَتْك أهواؤُك، وضيَّعْتَ عُمُرَك. ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله.

○○○○○

الزم محراب الإنابة

أيُّها المذنبُ! إذا أحسستَ نَفَحاتِ الجزاءِ؛ فلا تكثرنَّ الضَّجِيجَ، ولا تقولنَّ: قد تُبْتُ ونَدِمْتُ؛ فهلَّا زالَ عني من الجزاءِ ما أكرهُ!

فلعلَّ تَوْبَتَكَ ما تحَقَّقَتْ.

وإنَّ للمُجازاةِ زمانًا يمتدُّ امتدادَ المَرَضِ الطويل؛ فلا تَنْجَعُ فيه الحيلُ حتى يَنْقَضِيَ أوانُه.

فاصْبِرْ أيُّها الخاطئُ حتَّى يَتَخَلَّلَ ماءُ عينيكَ خِلالَ ثوبِ القلبِ المتنجِّسِ؛ فإذا عَصَرَتْهُ كَفُّ الأَسَى، ثم تكررتْ دُفَعُ الغَسَلاتِ؛ حُكِمَ بالطهارةِ.

بَقِيَ آدمُ يبكي على زَلَّتِهِ ثلاثَ مئةِ سنةٍ.

وَمَكَثَ أيوبُ عليه السلام في بلائِه ثمانيَ عشرةَ سنةً.

وأقامَ يعقوبُ يبكي على يوسفَ عليهما السلامُ ثمانين سنةً.

وللبلايا أوقاتٌ ثم تَنْصَرِمُ.

وربَّ عقوبةٍ امتدَّتْ إلى زمانِ الموتِ.

فاللازمُ لك أنْ تُلازِمَ مِحْرَابَ الإنابةِ، وتَجْلِسَ جِلْسَةَ الـمُسْتَجْدِي، وتجعلَ طعامَكَ الْقَلَقَ، وشرابَكَ البكاءَ؛ فربما قَدِمَ بشيرُ القَبولِ، فارتدَّ يعقوبُ الحزنِ بصيرًا، وإنْ مُتَّ في سجنِ شَجَنِكَ[1]؛ فربما نابَ حزنُ الدُّنيا عن حُزْنِ الآخرةِ، وفي ذلك ربحٌ عظيمٌ.

○○○○○

العاقل لا ينتهك حرمات الله

لا أُنْكِرُ على من طَلَبَ لَذَّةَ الدُّنيا من طريقِ المباحِ؛ لأنَّه ليس كلُّ أحدٍ يَقْوَى على التَّرْكِ.

إنَّما الـمِحْنَةُ على مَنْ طَلَبَها فلم يَجِدْها أو أكْثَرَها إلَّا من طريقِ الحرامِ، فاجتهدَ في تحصيلها، ولم يُبالِ كيف حَصَلَتْ.

فهذه المحنةُ التي بُخِسَ العقلُ فيها حقَّه، ولم ينتفِعْ صاحبُه بوجودِه لأنَّه لو وَزَنَ ما آثَرَ وعقابَه؛ طاشتْ كِفَّةُ اللَّذَّةِ التي فَنِيَتْ عندَ أوَّلِ ذَرَّةٍ من أجزائِها.

وكم قد رأيْنَا مِمَّن آثَرَ شهوتَهَ فَسَلَبَتْ دينَه!

فَلْيَعْجَبِ العاقلُ حينَ التصفُّحِ لأحوالِهم؛ كيفَ آثروا شيئًا ما أقاموا معه، وصاروا إلى عقابٍ لا يفارِقُهم؟!

فاللهَ اللهَ في بَخْسِ العقولِ حقَّها!

ولينظرِ السالكُ أينَ يَضَعُ القدمَ؛ فربَّ مُسْتَعْجِلٍ وَقَعَ في بئرِ بَوارٍ.

ولتكنْ عينُ التيقُّظِ مفتوحةً؛ فإنَّكم في صفِّ حربٍ لا يُدْرَى فيه من أين يُتَلَقَّى النَّبْلُ؛ فأعينوا أنْفُسَكُمْ، ولا تُعينوا عليها.

○○○○○

إياك والتعرضَ للفتنِ

لولا غَيْبَةُ العاصي في وقْتِ المعاصي؛ كانَ كالمعاندِ؛ غيرَ أنَّ الهوى يَحولُ بينَه وبين الفَهْمِ للحالِ، فلا يَرَى إلَّا قضاءَ شهوتِه، وإلَّا فلو لاحتْ له المخالفةُ؛ خَرَجَ من الدينِ بالخلافِ؛ فإنَّما يَقْصِدُ هواه، فيقعُ الخلافُ ضِمْنًا وَتَبَعًا.

---

(١) شجنك: حزنك.

وأكثرُ ما يقعُ هذا في مقاربةِ الفِتْنَةِ، وقلَّ مَن يَسْلَمُ عند المقاربةِ؛ لأنه كتقديم نارٍ إلى حَلْفا[١].

ثم لو مَيَّزَ العاقلُ بين قضاءِ وَطَرِهِ لحظةً وانقضاءِ باقي العُمُرِ بالحسرةِ على قضاءِ ذلك الوَطَرِ؛ لما قَرُبَ منه ولو أُعطي الدُّنيا؛ غيرَ أنَّ سكرةَ الهوى تحولُ بين الفِكْرِ وذلك.

آهٍ؛ كم معصيةٍ مضتْ في ساعتِها كأنَّها لم تكنْ ثم بَقِيَتْ آثارُها، وأقلُّها ما لا يَبْرَحُ من المرارةِ في الندم!

والطريقُ الأعظمُ في الحذرِ أنْ لا يَتَعَرَّضَ لسببِ فتنةٍ ولا يقارِبَه.

فَمَنْ فهِمَ هذا وبالغَ في الاحترازِ؛ كانَ إلى السلامةِ أقربُ.

○○○○○

في صيانةِ العلم

رأيتُ عمومَ أربابِ الأموالِ يستخدمونَ العلماءَ ويستذِلُّونهم بشيءٍ يسيرٍ يعطونَهم من زكاةِ أموالهم، فإنْ كان لأحدِهم خَتْمَةٌ؛ قالَ: فلانٌ ما حَضَر! وإنْ مَرِضَ؛ قال: فلانٌ ما تَرَدَّدَا! وكلُّ مِنَّتِه عليه شيءٌ نَزْرٌ يجبُ تسليمُه إلى مِثْلِهِ!! وقد رَضِيَ العلماءُ بالذُّلِّ في ذلك لموضِعِ الضَّرورةِ.

فرأيتُ أنَّ هذا جهلٌ من العلماءِ بما يجبُ عليهم من صيانةِ العلمِ، ودواؤُه من جهتين:

* إحداهما: القناعةُ باليسيرِ؛ كما قيلَ: مَن رَضِيَ بالخَلِّ والبَقْلِ؛ لم يَسْتَعْبِدْهُ أحدٌ.

* والثاني: صَرْفُ بعضِ الزمانِ المصروفِ في خدمةِ العلم إلى كَسْبِ الدُّنْيا؛ فإنه يكونُ سببًا لإعزازِ العلم، وذلك أفضلُ من صَرْفِ جميعِ الزمانِ في طلبِ العلم، مع احتمالِ هذا الذُّلِّ.

ومَنْ تأمَّلَ ما تأمَّلْتُهُ، وكانتْ له أَنَفَةٌ؛ قدَّر قُوْتَه[٢]، واحتفظَ بما معه، أو سعى في مُكْتَسَبٍ يكفيهِ. ومن لم يأنفْ من مثلِ هذه الأشياء؛ لم يَحْظَ من العلم إلَّا بصورتِه دونَ معناهُ.

○○○○○

---

(١) الحلفاء: نبات معروف.

(٢) قدّر قوته: ضيق نفقته.

اتبع ولا تبتدع

رأيتُ كثيرًا من الناس لا يَعْمَلُونَ على دليلٍ، بل كيفَ اتَّفَقَ، وربما كان دليلُهم العاداتِ! وهذا أقبحُ شيءٍ يكونُ.

ومِن هذا القَبيلِ في المعنى قومٌ يَتَعَبَّدونَ ويَتَزَهَّدونَ ويُنْصِبونَ أبدانَهم في العملِ بأحاديثَ باطلةٍ، ولا يسألونَ عنها من يَعْلَمُ!

ومن الناسِ من يُثْبِتُ الدليلَ، ولا يَفْهَمُ المقصودَ الذي دلَّ عليه الدليلُ، ومن هذا الجنسِ قومٌ سَمِعوا ذَمَّ الدُّنيا، فتزهَّدوا، وما فهموا المقصودَ، فظنُّوا أنَّ الدُّنيا تُذَمُّ لذاتِها، وأنَّ النفسَ تَجِبُ عداوتُها، فَحَملوا على أنفسِهم فوقَ ما يُطاقُ، وعَذَّبوها بكلِّ نوعٍ، ومنعوها حُظوظَها؛ جاهلينَ بقوله ﷺ: «إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقًّا»[1]، وفيهم مَن أَدَّتْهُ الحالُ إلى تركِ الفرائضِ، ونُحولِ الجسمِ، وضَعْفِ القُوى!

وكلُّ ذلك لِضَعْفِ الفهْمِ للمقصودِ والتلمُّحِ للمرادِ.

كما رُوِي عن داودَ الطائيِّ: أنَّه كان يَتْرُكُ ماءً في دَنٍّ[2] تحتَ الأرضِ، فيشربُ منه وهو شديدُ الحرِّ! وقال لسفيانَ: إذا كنتَ تأكلُ اللذيذَ الطيِّبَ، وتشربُ الماءَ الباردَ المُبَرَّدَ، فمتى تحبُّ الموتَ والقدومَ على الله؟!

وهذا جهلٌ بالمقصودِ؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ الحارِّ يورِثُ أمراضًا في البدن، ولا يَحْصُلُ به الرِّيُّ، وما أُمِرْنَا بتعذيبِ أنفُسِنا على هذه الصورةِ، بل بِتَرْكِ ما تدعو إليه مما نهى اللهُ عنه.

وفي الحديثِ الصحيحِ[3]: أنَّ أبا بكرٍ رضي اللهُ عنه لَـمَّا حَلَبَ له الرَّاعي في طريقِ الهجرةِ؛ صبَّ الماءَ على القَدَح حتَّى بَرَدَ أسفَلُهُ، ثم سقى رسولَ الله ﷺ، وفَرَشَ له في ظِلِّ صخرةٍ. وكان يُسْتَعْذَبُ لرسولِ الله ﷺ الماءُ[4].

ولو فَهِمَ داودُ رحمه الله أنَّ إصلاحَ عَلَفِ الناقةِ متعيِّنٌ لِقَطْعِ المسافةِ؛ لم يَفْعَلْ هذا.

---

(١) البخاري (١٩٦٨).

(٢) دنّ: وعاء.

(٣) البخاري (٢٤٣٩)، ومسلم (٢٠٠٩).

(٤) أبو داود (٣٧٣٥).

ألا ترى إلى سفيانَ الثوريِّ؛ فإنه كان شديدَ المعرفةِ والخوفِ، وكان يأكُلُ اللذيذَ، ويقولُ: إنَّ الدَّابَّةَ إذا لم يُحْسَنْ إليها؛ لم تعملْ.

ولعلَّ بعضَ مَن يسمعُ كلامي هذا يقولُ: هذا ميلٌ على الزُّهَّادِ!

فاقولُ: كنْ مع العلماءِ، وانظرْ إلى طريقِ الحسنِ وسفيانَ ومالكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ والشافعيِّ، وهؤلاءِ أصولُ الإسلامِ، ولا تُقَلِّدْ دينَك من قَلَّ علمُه؛ وإن قَوِيَ زُهْدُه، واحملْ أمْرَه على أنه كانَ يُطيقُ هذا، ولا تقتدِ بهم فيما لا تُطِيقُه؛ فليسَ أمرُنا إلينا، والنفسُ وديعةٌ عندَنا.

فإن أنكرتَ ما شرحتُه؛ فأنت مُلْحَقٌ بالقومِ الذين أنكرتُ عليهِم.

هذا رمزٌ إلى المقصودِ، والشرحُ يطولُ.

ooooo

عاقبةُ الصبرِ

قرأتُ سورةَ يوسفَ عليه السلامُ، فتعجَّبْتُ من مدحِهِ عليه السلامُ على صبرِهِ، وشرحِ قصَّتِهِ للناسِ، ورفعِ قَدْرِهِ بِتَرْكِهِ ما تَرَكَ.

فتأمَّلْتُ خَبِيئَةَ الأمرِ؛ فإذا هي مخالفةٌ للهوى المكروهِ.

فقلتُ: وا عجبًا! لو وافَقَ هَواهُ؛ مَن كان يكونُ؟! ولـمَّا خالفَهُ؛ لقد صار أمرًا عظيمًا؛ تُضْرَبُ الأمثالُ بصبرِهِ، ويَفْتَخِرُ على الخَلْقِ باجتهادِهِ، وكلُّ ذلك قد كانَ بصبرِ ساعةٍ؛ فيا له عزًّا وفخرًا أن تَمْلِكَ نفسَكَ ساعةَ الصبرِ عن المحبوبِ وهو قريبٌ!

فتلمَّحوا -رَحِمَكُم الله- عاقبةَ الصبرِ ونهايةَ الهوى! فالعاقلُ مَن مَيَّزَ بين الأمرينِ؛ الحلوينِ والمرَّيْنِ؛ فإنَّ مَن عَدَلَ ميزانُه، ولم تَمِلْ به كِفَّةُ الهوى؛ رأى كُلَّ الأرباحِ في الصَّبْرِ، وكلَّ الخُسْرانِ في موافقةِ النفسِ.

وكفى بهذا موعظةً في مخالفة الهوى لأهلِ النُّهَى.

واللهُ الموفقُ.

ooooo

أثرُ الرقائقِ في صلاحِ القلوبِ

رأيتُ الاشتغال بالفقهِ وسماعِ الحديث لا يكادُ يكفي في صلاحِ القلبِ؛ إلَّا أنْ يُمْزَجَ بالرقائقِ والنظرِ في سِيَرِ السلفِ الصالحينَ، فأما مجرَّدُ العلم بالحلالِ؛ فليس له كبيرُ عملٍ في رقةِ القلبِ، وإنما ترقُّ القلوبُ بذكرِ رقائقِ الأحاديثِ وأخبارِ السَّلفِ الصالحينَ؛ لأنَّهم تناولوا مقصودَ النقلِ، وخَرجوا عن صُورِ الأفعالِ المأمورِ بها إلى ذَوْقِ معانيها والمرادِ بها.

وما أخبرتُك بهذا إلَّا بعدَ معالجةٍ وذوقٍ، لأني وجدتُ جمهورَ المحدثينَ وطلابَ الحديثِ هِمَّةُ أحدِهم في الحديثِ العالي وتكْثِيرِ الأجزاءِ، وجمهورَ الفقهاءِ في علومِ الجَدَلِ وما يُغالَبُ به الخَصْمُ، وكيفَ يَرِقُّ القلبُ مع هذه الأشياءِ؟!

وقد كانَ جماعةٌ من السَّلَفِ يقصِدونَ العبدَ الصالحَ للنَّظَرِ إلى سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ لا لاقتباسِ علمِهِ، وذلك أنَّ ثمرةَ علمِه هديُه وسمتُه.

فافهمْ هذا، وامزِجْ طَلَبَ الفقهِ والحديثِ بمطالعةِ سِيَرِ السَّلَفِ والزُّهَّادِ في الدُّنيا؛ ليكونَ سببًا لِرِقَّةِ قلبِك.

ولا يَصْلُحُ العملُ مع قلَّةِ العلمِ؛ فَهُما في ضَرْبِ المَثَلِ كسائِقٍ وقائِدٍ، والنفسُ بينهما حَرونٌ[1] ومع جِدِّ السائقِ والقائدِ ينقطعُ المنزلُ، ونعوذُ باللهِ من الفُتورِ.

○○○○○

عليك بالقناعة

رأيتُ النفسَ تَنْظُرُ إلى لَذَّاتِ أربابِ الدُّنيا العاجِلةِ، وتنسى كيفَ حُصِّلَتْ وما يَتَضَمَّنُها من الآفاتِ.

وبيانُ هذا:

* **أنَّك إنْ رأيتَ صاحبَ إمارةٍ وسلطنةٍ**، فتأمَّلْتَ نعمتَه؛ وجَدْتَها مشوبةً بالظلم، فإنْ لم يَقْصِدْه هو؛ حَصَلَ مِن عُمَّالِهِ، ثم هو خائفٌ، منزعِجٌ في كلِّ أمورِهِ، حَذِرٌ من عَدُوٍّ أنْ يَسُمَّهُ، قَلِقٌ مِمَّنْ هو فوقَه أنْ يَعْزِلَهُ، ومِن نظيرِهِ أنْ يَكيدَهُ.

---

(١) حرون: صعب الانقياد.

* وإن رأيتَ صاحبَ تجارةٍ؛ رأيتَهُ قدْ تَقَطَّعَ في البلادِ، فلم ينلْ ما نالَ إلَّا بعدَ عُلُوِّ السِّنِّ، وذَهابِ زمانِ اللَّذَّةِ.

وهذه الحالةُ هي الغالبةُ؛ فإنَّ الإنسَانَ لا يكادُ يَجْتَمِعُ له كلُّ ما يُحِبُّهُ إلَّا عند قُرْبِ رحيلِه؛ فإنْ بَدَرَ ما يُحِبُّ في بدايةِ شبابِهِ؛ فالصَّبْوَةُ مانعةٌ مِن فَهْمِ التَّدْبيرِ أو حُسْنِ الالتذاذِ.

والإنسانُ في حالةِ الصَّبْوَةِ لا يَدْرِي أينَ هو؛ إلَّا أنْ يَبْلُغَ، فإذا بَلَغَ؛ كانتْ هِمَّتُهُ في المنكوحِ كيفما اتَّفَقَ. وإنْ تَزَوَّجَ؛ جاءَ الأولادُ، فَمنعوهُ اللَّذَّةَ، وانْكَسَرَ في نفسِهِ، وافْتَقَرَ إلى الكَسْبِ عليهم. فبينما هُو قد دَعَكَ[١] في تلكَ الـمُدَيْدَةِ القريبةِ من الثلاثينَ؛ وَخَطَهُ[٢] الشيب، فانْفَرَقَ[٣] من نفسه؛ لعلمِه أنَّ النساءَ يَنْفِرْقْنَ منهُ؛ كما قال ابنُ المعتزِّ بالله:

لَقَدْ أتْعَبْتُ نَفْسِي في مَشِيبِي فَكَيْفَ تُحِبُّنِي الغِيْدُ الكَعابُ[٤]

وهكذا؛ لا تَرى الـمُتَمَتِّعَ بالـمُسْتَحْسَناتِ: إنْ وَجَدَهُنَّ، لم يجدْ مالًا يَبْلُغُ به المرادَ، وإن اشتغلَ بجمعِ المالِ؛ ضاعَ زمنُ تمتُّعِه، وإذا تَمَّ المطلوبُ؛ فالشيبُ أقبحُ قَذًى وأعظمُ مُبْغَضٍ.

ثم إنَّ صاحبَ المالِ خائفٌ على مالِه، محاسِبٌ لِـمُعامليه، مذمومٌ إنْ أَسْرَفَ وإنْ قَتَّرَ، ولدُهُ يَرْصُدُ موتَه، وجاريتُه قد لا تَرْضى بشَخْصِه، وهو مشغولٌ بحفظِ حَواشِيه؛ فقدْ مضى زمانُهُ في محنٍ، واللَّذَّاتُ فيها خِلَسٌ[٥] مُعتادةٌ لا لَذَّةَ فيها.

ثم في القيامة يُحْشَرُ الأميرُ والتاجرُ خزايا إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ.

فإيَّاك إيَّاك أنْ تَنْظُرَ إلى صورةِ نعيمِهِم؛ فإنَّك تَسْتَطيبُه لبُعْدِهِ عنكَ، ولو قدْ بَلَغْتَهُ؛ كرِهْتَه، ثم في ضِمنِه من مِحَنِ الدُّنيا والآخرةِ ما لا يُوصَفُ؛ فعليك بالقناعةِ مهما أمكنَ؛ ففيها سلامةُ الدُّنيا والدينِ.

---

(١) دعك: تمرّس.

(٢) وخطه: أسرع إليه.

(٣) انفرق: فزع.

(٤) الغيد الكعاب: الفاتنات الناهدات من الفتيات.

(٥) خلس: نُهب تختلس سريعًا ولا تدوم.

وقد قيلَ لبعضِ الزُّهَّادِ وعندَه خبزٌ يابسٌ: كيفَ تَشْتَهِي هذا؟ فقالَ: أَترُكُهُ حتَّى أشتهيه.

أسبابُ ظهور الأهواءِ والبدع

تأملتُ الدَّخَلَ[1] الذي دَخَلَ في ديننا من ناحِيَتَي العلمِ والعملِ، فرأيتُه من طريقينِ قد تَقَدَّما هذا الدينَ، وأَنِسَ الناسُ بِهما:

* **فأمَّا أصلُ الدَّخَلِ في العلمِ والاعتقادِ؛ فمِنَ الفَلْسَفَةِ.** وهو أنَّ خَلْقًا من العلماءِ في ديننا لم يَقْنَعوا بما قَنَعَ به رسولُ الله ﷺ مِنَ الانعكافِ على الكتابِ والسُّنَّةِ، فأَوْغَلوا في النظرِ في مذاهبِ أهلِ الفلسفةِ، وخاضُوا في الكلامِ الذي حَمَلَهُم على مذاهبَ رَدِيَّةٍ، أفسدوا بها العقائدَ.

* **وأما أصلُ الدَّخَلِ في بابِ العَمَلِ؛ فمِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ.** فإنَّ خَلْقًا من المتزهِّدينَ أخذوا عن الرُّهبانِ طريقَ التقشُّفِ، ولم يَنْظُروا في سيرةِ نبيِّنا ﷺ وأصحابِهِ، وسَمِعُوا ذَمَّ الدُّنيا وما فَهِموا المقصودَ، فاجْتَمَعَ لهم الإعراضُ عن علمِ شَرْعِنَا مع سوءِ الفهمِ للمقصودِ، فَحَدَثَتْ منهم بدعٌ قبيحةٌ.

فأولُ ما ابتدأَ به إبليسُ أنَّه أمَرَهُم بالإعراضِ عن العلم، فَدَفَنوا كُتُبَهُم وغَسَلوها، وألزَمَهُم زاويةَ التعبُّدِ فيما زَعَمَ، وأظهرَ لهم مِنَ الخُزَعْبلاتِ ما أَوْجَبَ إقبالَ العوامِّ عليهم، فَجَعَلَ إلهَهُم هواهُم، ولو عَلِموا أنَّهم منذ دَفَنوا كُتُبَهم وفارَقوا العلمَ انطفأَ مصباحُهم؛ ما فَعلوا، لكنَّ إبليسَ كان دقيقَ المَكْرِ يومَ جَعَلَ عِلْمَهُمْ في دفينٍ تحتَ الأرضِ!

وبالعلم يُعْلَمُ فسادُ الطريقينِ ويُهْتَدَى إلى الأصوبِ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ لا يَحْرِمَنا إيَّاهُ؛ فإنَّهُ النورُ في الظُّلَمِ، والأنيسُ في الوَحْدَةِ، والوزيرُ عند الحادثةِ.

○○○○○

(١) الدخل: الفساد.

شرفُ الزمانِ

أعوذُ بالله من صُحْبَةِ البطَّالينَ!

لقد رأيتُ خَلْقًا كثيرًا يَجْرونَ معي فيما قدِ اعتادَهُ الناسُ مِن كَثْرَةِ الزيارةِ، ويسمُّونَ ذلك التردُّدَ خِدْمَةً، ويطلبُونَ الجلوسَ، ويُجْرونَ فيهِ أحاديثَ الناسِ وما لا يَعْنِي وما يتخلَّلُه غِيبةٌ!

وهذا شيءٌ يفعلُه في زماننا كثيرٌ من الناس، وربَّما طَلَبَهُ المَزُورُ، وتشوَّقَ إليهِ، واستوحشَ من الوَحْدَةِ، وخُصوصًا في أيامِ التهاني والأعيادِ، فتراهم يَمْشي بعضُهم إلى بعضٍ، ولا يَقْتَصِرونَ على الهناءِ والسلامِ، بل يَمْزُجونَ ذلك بما ذكرتُهُ من تَضْييعِ الزَّمانِ.

فلما رأيتُ أنَّ الزمانَ أشرفُ شيءٍ، والواجبُ انتهابُه بفعلِ الخَيْرِ؛ كرهتُ ذلك، وبقيتُ معهم بينَ أمرين: إنْ أنكرتُ عليهم؛ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ لموضعِ قَطْعِ المألوفِ! وإن تَقَبَّلْتُه منهم؛ ضاعَ الزمانُ!

فصرتُ أدافعُ اللقاءَ جَهْدي؛ فإذا غُلِبْتُ؛ قَصَّرْتُ في الكلامِ؛ لأتعجَّلَ الفراقَ.

ثم أعددتُ أعمالًا تمنعُ من المحادثةِ لأوقاتِ لقائهم؛ لئلَّا يمضيَ الزمانُ فارغًا، فجعلتُ من الـمُسْتَعَدِّ لِلِقَائِهِم: قطعَ الكاغَدِ[1]، وبَرْيَ الأقلامِ، وحَزْمَ الدفاترِ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ لا بدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فِكْرٍ وحضورِ قلبٍ، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتِهم؛ لئلاَّ يضيعَ شيءٌ من وقتي.

نسألُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يُعَرِّفَنا شَرَفَ أوقاتِ العُمُرِ، وأنْ يوفِّقَنا لاغتنامِهِ.

ولقد شاهدتُ خَلْقًا كثيرًا لا يعرفونَ معنى الحياةِ: فمنهُم مَن أغناهُ اللهُ عن التكسُّبِ بكثرةِ مالِه؛ فهو يقعُدُ في السوقِ أكثرَ النهارِ يَنْظُرُ إلى الناسِ، وكم تمرُّ به من آفةٍ ومنكرٍ! ومنهم مَنْ يَخْلو بِلَعِبِ الشَّطْرَنْجِ! ومنهُم مَنْ يَقْطَعُ الزمانَ بِكَثْرَةِ الحوادثِ من السلاطينِ والغَلاءِ والرُّخْصِ... إلى غيرِ ذلك.

فعلمتُ أنَّ الله تعالى لم يُطْلِعْ على شَرَفِ العُمُرِ ومعرفةِ قَدْرِ أوقاتِ العافيةِ إلَّا مَن وَفَّقَهُ وألهمهُ اغتنامَ ذلك، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصل: ٣٥].

---

(١) الكاغد: القرطاس.

حلاوةُ طلبِ العلمِ

تأملتُ أحوالَ الناسِ في حالةِ عُلُوِّ شأنِهِم، فرأيتُ أكثرَ الخَلْقِ تبينُ خَسَارتُهم حينئذٍ؛ فمنهُم مَن بالَغَ في المعاصي من الشبابِ، ومنهُم من فَرَّطَ في اكتسابِ العلمِ، ومنهُم مَنْ أكْثَرَ من الاستِمْتَاعِ باللَّذَّاتِ، فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكِبَرِ.

فأمَّا مَنْ أنفقَ عَصْرَ الشَّبابِ في العلمِ؛ فإنَّه في زمنِ الشيخوخةِ يَحْمَدُ جَنَى ما غَرَسَ، ويلتذُّ بتصنيفِ ما جَمَعَ، ولا يرى ما يَفْقِدُ من لَذَّاتِ البدنِ شيئًا بالإضافةِ إلى ما ينالُهُ من لذاتِ العلمِ، هذا مع وجودِ لَذَّاتِهِ في الطلبِ الذي كان تأَمَّلَ به إدراكَ المطلوبِ، وربَّما كانتْ تلكَ الأعمالُ أطيبَ ممَّا نيلَ منها؛ كما قالَ الشاعرُ:

أَهْتَزُّ عندَ تَمَنِّي وَصْلِها طَرَبًا ... ورُبَّ أُمْنِيَةٍ أحْلَى مِنَ الظَّفَرِ

ولقد تأملتُ نفسي بالإضافةِ إلى عشيرتي الذينَ أنْفَقوا أعمارَهُم في اكتسابِ الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبْوَةِ والشبابِ في طلبِ العلمِ، فرأيتُني لم يَفُتْنِي مما نالوهُ؛ إلَّا ما لو حَصَلَ لي ندمتُ عليه.

ثم تأملتُ حالي؛ فإذا عَيْشي في الدُّنيا أجودُ من عيشِهِم، وجاهي بينَ الناسِ أعلى من جاهِهِم، وما نلتُهُ من معرفةِ العلم لا يقاوَمُ.

فقال لي إبليسُ: ونَسِيتَ تَعَبَكَ وسَهَرَكَ؟!

فقلتُ له: أيُّها الجاهلُ! تقطيعُ الأيدي لا وَقْعَ له عند رؤيةِ يوسُفَ، وما طالتْ طريقٌ أدَّتْ إلى صَدِيقٍ.

جَزَى اللهُ المَسِيرَ إليه خَيْرًا ... وإنْ تَرَكَ المَطَايَا كالمَزَادِ

ولقدْ كنتُ في حَلاوةِ طَلَبِي العلمَ ألقى من الشدائِدِ ما هُو عندي أحلَى من العسلِ لأجْلِ ما أطلُبُ وأرجو، كنتُ في زمانِ الصِّبا آخُذُ معي أرغفةً يابسةً، فأخرُجُ في طلبِ الحديثِ، وأقعدُ على نهرِ عيسى، فلا أقدِرُ على أكلِها إلَّا عند الماءِ؛ فكلَّما أكلتُ لُقمةً؛ شَرِبْتُ عليها، وعينُ هِمَّتِي لا ترى إلَّا لَذَّةَ تَحْصيلِ العلمِ.

فأثْمَرَ ذلك عندي أني عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سماعي لحديثِ سِيَرِ الرسولِ ﷺ وأحوالِهِ وآدابِهِ وأحوالِ أصحابِه وتابعيهم.

وأَثْمَرَ ذلك عندي من المعاملةِ ما لا يُدْرَكُ بالعلمِ، حتَّى إنني أَذْكُرُ في زمانِ الصَّبْوةِ

ووقتِ الغُلْمَةِ[١] والعُزْبَةِ قُدرتي على أشياءَ كانت النفسُ تتوقُ إليها تَوَقَانَ العطشانِ إلى الماءِ الزُّلالِ، ولـم يَمْنَعْنِي عنها إلَّا ما أثْمَرَ عندي العلمُ من خوفِ الله عزَّ وجلَّ، ولولا خَطايا لا يخلو منها البشرُ؛ لقدْ كنتُ أخافُ على نفسي من العُجْبِ.

غيرَ أنَّه عزَّ وجلَّ صانني وعلَّمني وأطلعَني من أسرارِ العلم على معرفَتِهِ وإيثارِ الخَلْوَةِ به، حتى إنه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبِشْرٌ؛ لرأيتُهما زَحْمَةً. ثم عادَ، فَغَمَسَني في التقصيرِ والتفريطِ، حتى رأيتُ أقلَّ الناسِ خيرًا مني.

ولقد جلستُ يومًا، فرأيتُ حولي أكثرَ من عَشَرَةِ آلافٍ، ما فيهم إلَّا مَن قَدْ رَقَّ قلبُه، أو دَمَعَتْ عينُه، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إنْ نَجَوْا وَهَلَكْتِ؟! فصِحْتُ بلسانِ وَجْدِي:

إلهي وسَيِّدي! إنْ قَضَيْتَ عليَّ بالعذابِ غدًا؛ فلا تُعْلِمْهُم بعذابي؛ صيانةً لكرمِكَ، لا لأجلي؛ لئلَّا يقولوا: عَذَّبَ مَن دَلَّ عليه.

إلهي! قد قيلَ لنبيّكَ ﷺ: اقْتُلِ ابنَ أُبَيٍّ المنافقَ! فقالَ: «**لَا يَتَحَدَّثُ الناسُ أنَّ محمَّدًا يَقْتُلُ أصحابَه**»[٢].

إلهي! فاحفظْ حُسْنَ عقائِدِهم فيَّ بكرمِكَ أنْ تُعلِمَهُم بعذابِ الدَّليلِ عليكَ. حاشَاكَ والله يا ربِّ من تَكْدِيرِ الصَّافي.

لا تَبْـرِ عُـودًا أنْتَ رَيَّشْتَهُ	حاشا لِباني الجُودِ أنْ يَنْقُضا
لا تُعْطِشِ الزَّرْعَ الذي نَبْتُهُ	بِصَوْبِ إنْعَامِكَ قَدْ رَوَّضا

ooooo

في تأديبِ الصبيانِ

تدبيرُ الأولادِ؛ يكون بحفظِهم مِن مخالطةٍ تُفْسِدُ، ومتى كانَ الصبيُّ ذا أَنَفةٍ، حَيِيًّا؛ رُجِيَ خيرُه. ولْيُحْمَلْ على صحبةِ الأشرافِ والعلماءِ، ولْيُحَذَّرْ من مصاحبَتِهِ الـجُهَّالَ والسفهاءَ؛ فإنَّ الطبعَ لِصٌّ.

وليحَذَّرِ الصبيُّ من الكذبِ غايةَ التحذيرِ، ومِن المخالطةِ للصبيانِ، ولْيوصَ

---

(١) الغلمة: شدة الرغبة في النكاح.

(٢) البخاري (٤٩٠٥)؛ ومسلم (٢٥٨٤).

بزيادةِ البرِّ للوالدينِ، ولْيُحْفَظْ من مخالطةِ النساءِ، فإذا بَلَغَ؛ فَلْيُزَوَّجْ بِصَبِيَّةٍ، فينتفعانِ.

هذه الإشارةُ إلى تدبيرِ أمورِ الدُّنيا.

فأمَّا تدبيرُ العلمِ؛ فينبغي أن يُحْمَلَ الصبيُّ من حين يبلغُ خمسَ سنينَ على التشاغُلِ بالقرآنِ والفقهِ وسماعِ الحديثِ، ولْيُحَصَّلْ له المحفوظاتُ أكثرَ من المسموعاتِ؛ لأنَّ زمانَ الحِفْظِ إلى خمسَ عشرةَ سنةً؛ فإذا بَلَغَ؛ تَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، فَلْيُضْرَبْ تارةً، ويُرْشَى أخرى؛ ليبلُغَ وقدْ حصَّلَ محفوظاتٍ سَنِيَّةً.

وأولُ ما ينبغي أن يُكَلَّفَ: حفظُ القرآنِ متقنًا؛ فإنَّه يَثْبُتُ ويختلِطُ باللحمِ والدمِ، ثم مقدمةٌ من النَّحْوِ يعرِف بها اللَّحْنَ، ثم الفقهُ مذهبًا وخلافًا، وما أمكنَ بعد هذا من العلوم؛ حفظهُ حسنٌ.

فالحِفْظُ في الصِّبا للمُهِمِّ من العلم أصلٌ عظيمٌ.

وقد رأيْنا كثيرًا ممَّن تشاغَلَ بالمسموعاتِ وكتابةِ الأجزاءِ، ورأى الحفظَ صَعْبًا، فمالَ إلى الأسهلِ، فمضى عُمُرُهُ في ذلك، فلمَّا احتاجَ إلى نفسِهِ؛ قَعَدَ يَتَحَفَّظُ على كِبَرٍ، فلم يُحَصِّلْ مقصودَه.

فاليقظةَ لفهم ما ذكرتُ، وانظرْ في الإخلاصِ؛ فما ينفعُ شيءٌ دونَه.

○○○○○

في لزومِ الحذرِ والخوفِ من اللهِ

تأملتُ حالةً أزعَجَتْني، وهو أنَّ الرجلَ قد يَفْعَلُ مع امرأتِهِ كلَّ جميلٍ وهي لا تُحِبُّهُ، وكذا يَفْعَلُ مع صديقِهِ والصديقُ يُبْغِضُهُ، وقد يَتَقَرَّبُ إلى السلطانِ بكلِّ ما يَقْدِرُ عليه والسلطانُ لا يُؤثِرُهُ، فيبقى متحيِّرًا يقولُ: ما حيلَتي؟!

فَخِفْتُ أنْ تكونَ هذه حالتي مع الخالقِ سبحانَه؛ أتقرَّبُ إليهِ، وهو لا يُريدُني، وربَّما يكونُ قد كَتَبَني شَقِيًّا في الأزلِ.

ومِن هذا خافَ الحسنُ، فقالَ: أخافُ أنْ يكونَ اطَّلَعَ على بعضِ ذُنوبي، فقالَ: لا غفرتُ لكَ.

فليسَ إلَّا القلقُ والخوفُ، لعلَّ سفينةَ الرَّجا تَسْلَمُ يومَ دُخولِـها الشاطئَ من جُرُفٍ[1].

○○○○○

في فضلِ النظرِ والتأملِ

تدبَّرْتُ أحوالَ الأخيارِ والأشرارِ، فرأيتُ سببَ صلاحِ الأخيارِ النَّظَرَ، وسببَ فسادِ الأشرارِ إهمالَ النَّظَرِ.

وذاك أنَّ العاقلَ ينظُرُ، فيعلمُ أنَّه لا بدَّ من صانعٍ، وأنَّ طاعتَه لازمةٌ، ويتأمَّلُ معجزاتِ رسولِ الله ﷺ، فيُسَلِّمُ قيادَهُ إلى الشرعِ، ثم يَنْظُرُ فيما يُقَرِّبُهُ إليه ويُزْلِفُهُ لديهِ. فإذا شَقَّ عليه إعادةُ العلمِ؛ تأمَّلَ ثَمَرَتَهُ، فَسَهُلَ ذلك.

وإذا صَعُبَ عليه قيامُ الليلِ؛ فكذلك.

وإذا رأى مشتَهًى؛ تأمَّلَ عاقِبَتَهُ، فعلمَ أنَّ اللَّذَّةَ تَفْنَى، والعارَ والإثمَ يبقيانِ؛ فَيَسْهُلُ عليه التَّرْكُ.

وإذا اشتهى الانتقامَ مِمَّنْ يؤذيه؛ ذَكَرَ ثوابَ الصبرِ، ونَدَمَ الغضبانِ على أفعالِهِ في حال الغضبِ. ثم لا يزالُ يتأمَّلُ سُرعةَ مَرِّ العُمُرِ، فَيَغْتَنِمُهُ بِتَحْصِيلِ أفضلِ الفضائلِ، فينال مُناهُ.

وأما الغافلُ؛ فإنَّه لا يرى إلَّا الشيءَ الحاضرَ؛ فمنهم مَنْ لم يتأمَّلْ في معنى المصنوعِ وإثباتِ الصَّانعِ، فَجَحَدوا، وتَرَكوا النَّظَرَ، وجَحَدوا الرسلَ وما جاؤوا به، ونَظَروا إلى العاجِلِ، ولم يَتَفَكَّروا في مبدئِه ومنتهاهُ؛ فليس عندَهُم من عرفانِ الـمَطْعَمِ إلَّا الأكلُ، ولو تأمَّلوا كيفَ أُنشِيءَ؟ ولماذا جُعِلَ حافظًا للأبدانِ؟ لَعَرَفوا حقائقَ الأمورِ! وكذلك كلُّ شهوةٍ تَعْرِضُ لهم؛ لا ينظرونَ في عاقبتِها - بل في عاجلِ لَذَّتِها- وكم قد جَنَتْ عليهم؛ من وقوعِ حَدٍّ، وقَطْعِ يدٍ وفضيحةٍ! فتعجيلُ اللَّذَّةِ يفوِّتُ الفضائلَ ويُحَصِّلُ الرذائلَ، وسببُه عدمُ النظرِ في العواقبِ، وهذا شُغْلُ العقلِ، وذاك المذمومُ شُغْلُ الهوى.

نسألُ الله عزَّ وجلَّ يَقَظَةً تُرينا العواقبَ، وتكشِفُ لنا الفضائلَ والمعائِبَ، إنَّه قادرٌ على ذلك.

---

(١) جرف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله. وقد مرَّ.

وفي أنفسِكُم أفلا تبصرونَ

مِنْ أكبرِ الدَّليلِ على وُجودِ الخالقِ سبحانَه هذه النفسُ الناطقةُ، المميِّزةُ، المحرِّكةُ للبدنِ على مُقتَضى إرادتِها، والتي دَبَّرَتْ مصالحَها، وترقَّتْ إلى معرفةِ الأفلاكِ، واكتسبتْ ما أمْكَنَ تحصِيلُهُ من العلومِ، وشاهدتِ الصانعَ في المصنوعِ؛ فلم يحجُبْها سِتْرٌ وإنْ تكاثَفَ! ولا يُعْرَفُ مع هذا ماهِيَّتُها، ولا كيفيَّتُها، ولا جوهرُها، ولا محلُّها، ولا يُفْهَمُ مِن أين جاءَتْ؟ ولا يُدْرَى أينَ تذهبُ؟ ولا كيف تَعَلَّقَتْ بهذا الجسدِ؟

وهذا كلُّه يوجِبُ عليها أنَّ لها مدبِّرًا وخالِقًا، وكفى بذلك دَليلًا عليه؛ إذ لو كانتْ وُجِدَتْ بها؛ لما خَفِيَتْ أحوالُها عليها.

فسبحانَه سبحانَه.

○○○○○

راقبْ ربَّك ودعْكَ من الخلقِ

العاقلُ مَن يَحْفَظُ جانبَ الله عزَّ وجلَّ، وإن غَضِبَ الخَلْقُ.

وكلُّ مَنْ يَحْفَظُ جانبَ المخلوقينَ، ويُضَيِّعُ حَقَّ الخالقِ؛ يُقَلِّبُ اللهُ قَلْبَ الذي قَصَدَ أنْ يُرْضِيَهُ، فيُسْخِطُهُ عليه.

قال المأمونُ لبعضِ أصحابِهِ: لا تعصِ اللهَ بطاعتي؛ فيسلِّطُني عليكَ.

ولـمَّا خَرَجَ الراشدُ[1] من بغدادَ، وأرادوا تَوْلِيَةَ الـمُقْتَفي؛ شَهِدَ جماعةٌ مِن الشُّهودِ بأنَّ الراشدَ لا يَصْلُحُ للخلافةِ، فنَزَعوهُ، وولَّوُا المقتفيَ، فبَلَغَني أنه ذُكِرَ للمُقْتَفِي بعضُ الشهودِ، فذَمَّهُ، وقال: كان فيمَن أعانَ على أبي جعفرٍ[2].

وعلى ضدِّ هذا كلُّ مَن يُراعي جانبَ الحقِّ والصوابِ؛ يَرْضَى عنه من سَخِطَ عليه.

ولقد حدَّثني الوزيرُ ابنُ هُبَيْرَةَ أنَّ المستنجدَ بالله كَتَبَ إليه كتابًا وهو يومئذٍ وليُّ عهدٍ، وأراد أن يَسْتُرَهُ من أبيه. قالَ: فقلتُ للواصِلِ به: واللهِ ما يُمْكِنُني أقْرؤُهُ ولا أجيبُ

---

(١) الراشد بالله أحد خلفاء العباسيين.

(٢) كنيةُ الراشد بالله.

عنه. فلمّا وَلِيَ الخلافةَ؛ دَخلْتُ عليه، فقلتُ: أكبرُ دليلٍ على صِدْقِي وإخلاصِي أنِّي ما حَابَيْتُكَ في أبيكَ. فقالَ: صدقتَ؛ أنت الوزيرُ.

فينبغي أنْ يُحْسِنَ القصدَ لطاعةِ الخالِقِ، وإنْ سَخِطَ المخلوقُ؛ فإنَّه يعودُ صاغرًا، ولا يُسْخِطَ الخالقَ؛ فإنَّه يُسْخِطُ المخلوقَ، فيفوتُ الحظَّانِ جميعًا.

○○○○○

احفظ سرَّك

رأيتُ أكثرَ الناسِ لا يَتَمالَكونَ من إفشاءِ سِرِّهِم؛ فإذا ظَهَرَ؛ عاتَبوا مَن أخْبَروا به.

فوا عجبًا! كيفَ ضاقوا بِحَبْسِهِ ذَرْعًا، ثم لاموا مَن أفشاه؟!

وَلَعَمْرِي؛ إنَّ النفسَ يَصْعُبُ عليها كَتْمُ الشيءِ، وترى بإفشائِهِ راحةً، خُصوصًا إذا كان مَرَضًا أو هَمًّا أو عِشْقًا، وهذه الأشياءُ في إفشائِها قَرِيبةٌ، إنَّما اللازِمُ كِتْمانُهُ: احتيالُ المحتالِ فيما يُريدُ أنْ يُحَصِّلَ به غَرَضًا؛ فإنَّ مِن سوءِ التَّدْبيرِ إفشاءَ ذلك قبلَ تمامِهِ؛ فإنَّه إذا ظَهَرَ؛ بَطَلَ ما يُرادُ أنْ يُفْعَلَ، ولا عُذْرَ لمن أفشى هذا النوعَ.

وقد كان النبيُّ ﷺ إذا أراد سَفرًا؛ ورَّى بغيرِهِ[1].

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّما أحدِّثُ مَن أثِقُ به.

قيلَ له: وكلُّ حديثٍ جاوزَ الاثنين شائعٌ، وربَّما لم يَكْتُمْ صديقُك، وكم قدْ سَمِعْنَا مَن يُحَدِّثُ عنِ الملوكِ بالقبضِ على صاحبٍ، فَنَمَّ الحديثَ إلى الصاحبِ، وهَرَبَ، ففاتَ السلطانَ مرادُهُ! وإنَّما الرجلُ الحازمُ الذي لا يَتَعَدَّاه سِرُّهُ، ولا يُفشيهِ إلى أحدٍ.

وسَتْرُ المصائبِ من جُمْلَةِ كتمانِ السِّرِّ؛ لأنَّ إظهارَها يَسُرُّ الشامتَ، ويؤلمُ المحبَّ.

وكذلك ينبغي أنْ يَكْتُمَ مقدارَ السِّنِّ؛ لأنَّه إنْ كان كبيرًا؛ اسْتَهْرموهُ، وإنْ كان صغيرًا؛ احْتَقَروه.

ومما قد انهالَ فيه كثيرٌ من المُفَرِّطينَ: أنَّهم يَذْكُرونَ بين أصدقائِهم أميرًا أو سُلْطانًا، فيقولون فيهِ، فيبْلُغُ ذلك إليه، فيكونُ سببَ الهلاكِ.

---

(١) البخاري (٢٩٤٧)؛ ومسلم (٢٧٦٩).

وربَّما رأى الرجُلُ من صديقِه إخلاصًا وافيًا، فأشاعَ سِرَّهُ.

وقدْ قيلَ:

احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّةً واحْذَرْ صَدِيقَكَ ألْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّما انْقَلَبَ الصَّدِيْـقُ فكانَ أدْرَى بِالـمَضَرَّهْ

○○○○○

متى تتزوَّدُ للآخرةِ؟

ما أَبْلَهَ مَن لا يَعْلَمُ متى يأتيهِ الموتُ؛ وهو لا يستعِدُّ للقائِهِ!

وأشدُّ الناسِ بَلَهًا وتَغْفِيلًا مَن قدْ عَبَرَ الستينَ وقارَبَ السبعينَ – فإنَّ ما بَيْنَهُما هو مُعْتَرَكُ المنايا[1]، ومَن نازَلَ الـمُعْتَرَكَ؛ استعدَّ – وهو مع ذلك غافلٌ عن الاستعدادِ.

قـالَ الشَّبابُ لَعَلَّنا فـي شَيْبِنا نَدَعُ الذُّنوبَ فما يَقولُ الأشْيبُ

واللهِ؛ إنَّ الضَّحِكَ من الشيخِ ما له معنًى، وإنَّ الـمُزاحَ منه باردُ المعنى، وإنَّ تَعَرُّضَه بالدُّنيا – وقد دَفَعَتْهُ عنها – يُضْعِفُ القُوى ويُضْعِفُ الرأيَ.

وهل بقِيَ لابن ستينَ منزلٌ؟!

فإنْ طَمِعَ في السبعينَ؛ فإنَّما يرتقي إليها بعناءٍ شديدٍ إنْ قامَ دَفَعَ الأرضَ، وإنْ مشَى لَهَثَ، وإن قَعَدَ تنفَّسَ، ويرى شَهَواتِ الدُّنيا ولا يَقْدِرُ على تناوِلها؛ فإنْ أكَلَ كَدَّ المعِدَةَ، وصَعُبَ الهضمُ، وإنْ وَطِئَ آذى المرأةَ، ووقَعَ دَنِفًا[2] لا يقدِرُ على رَدِّ ما ذَهَبَ من القوةِ إلى مدةٍ طويلةٍ؛ فهو يعيشُ عَيْشَ الأسيرِ.

فإنْ طَمِعَ في الثمانينَ؛ فهو يَزْحَفُ إليها زَحْفَ الصَّغيرِ.

وَعَشْرُ الثَّمانينَ مَنْ خاضَها فإنَّ الـمُلِمَّاتِ فيها فُنونُ

فالعاقلُ مَن فَهِمَ مقاديرَ الزَّمانِ.

---

(١) معترك المنايا: من السنين ما بين الستين إلى السبعين.

(٢) دنفًا: شديد المرض.

فإنَّه فيما قبلَ البلوغ صَبِيٌّ ليس على عُمُرِهِ عِيارٌ[١]؛ إلَّا أنْ يُرْزَقَ فِطْنَةً؛ ففي بعضِ الصبيانِ فِطْنَةٌ تحثُّهم مِن الصِّغَرِ على اكتسابِ المكارمِ والعُلومِ.

فإذا بَلَغَ؛ فليعلمْ أنَّه زمانُ المجاهدةِ للهوى وتعلُّم العلم، فإذا رُزِقَ الأولادَ؛ فهو زمانُ الكَسْبِ للمعاملةِ.

فإذا بَلَغَ الأربعينَ؛ انْتهى تمامُهُ، وقضى مناسِكَ الأجلِ، ولم يَبْقَ إلَّا الانحدارُ إلى الوطنِ.

كأنَّ الفَتى يَرْقَى مِنَ العُمْرِ سُلَّما ... إلى أنْ يَجُوزَ الأرْبَعينَ وَيَنْحَطُّ

فينبغي له عندَ تمام الأربعينَ أنْ يَجْعَلَ جُلَّ هِمَّتِهِ التزوُّدَ للآخرة، ويكونَ كلُّ تلمُّحِهِ لما بينَ يديهِ، ويأخذَ في الاستعدادِ للرحيلِ، وإنْ كانَ الخطابُ بهذا لابنِ عشرينَ؛ إلَّا أنَّ رجاءَ التَّدارُكِ في حقِّ الصغيرِ لا في حقِّ الكبيرِ.

فإذا بَلَغَ الستينَ؛ فقدْ أعْذَرَ اللهُ إليه في الأجلِ، وجازَ من الزَّمَنِ؛ فَلْيُقْبِلْ بِكُلِّيَّتِهِ على جَمْعِ زادِهِ وتهيئةِ آلاتِ السَّفَرِ، ولْيَعْتقِدْ أنَّ كلَّ يوم يَحْيَا فيه غنيمةٌ ما هي في الحسابِ؛ خُصوصًا إذا قَوِيَ عليه الضَّعْفُ وزادَ؛ فإنه لا محرِّكَ كهوًى.

وكلَّما عَلَتْ سِنُّه؛ فينبغي أن يزيدَ اجتهادُهُ.

فإذا دَخَلَ في عَشْرِ الثمانينَ؛ فليس إلَّا الوداعُ، وما بَقِيَ من العُمُرِ إلَّا أسفٌ على تفريطٍ أو تعبُّدٌ على ضَعْفٍ.

نسألُ اللهَ عَزَّ وجلَّ يَقَظَةً تامَّةً، تَصْرِفُ عنا رُقادَ الغَفَلاتِ، وعملًا صالحًا نأمَنُ معهُ من الندم يومَ الانتقالِ.

حقيقةُ اللذة

لقد غَفَلَ طُلَّابُ الدُّنيا عن اللَّذَّةِ فيها، وما اللَّذَّةُ فيها؛ إلَّا شرفُ العلمِ، وزهرةُ العِفَّةِ، وأَنَفَةُ الحَمِيَّةِ، وعِزُّ القَناعةِ، وحلاوةُ الإفضالِ على الخَلْقِ.

فأما الالتذاذُ بالـمَطْعَمِ والـمَنْكَحِ؛ فشُغْلُ جاهلٍ باللَّذَّةِ؛ لأنَّ ذاكَ لا يُرادُ لنفسِهِ، بل لإقامةِ العِوَضِ في البدنِ والولدِ.

* وأيُّ لَذَّةٍ في النِّكاحِ؛ وهي قبلَ المباشرةِ لا تَحْصُلُ، وفي حالِ المباشرةِ قَلَقٌ لا يَثْبُتُ، وعندَ

---

(١) عيار: وزن أو كيل. والمعنى أن الصبيّ قبل البلوغ لا حساب عليه.

انقضائِها كأنْ لم تكُنْ، ثم تُثمِرُ الضَّعْفَ في البدنِ؟!

* وأيُّ لَذَّةٍ في جمع المالِ فَضْلًا عن الحاجةِ؛ فإنَّه مُسْتَعْبِدٌ للخازِنِ؛ يَبيتُ حَذِرًا عليه، ويَدْعُوهُ قليلُهُ إلى كَثيرِهِ؟!

* وأيُّ لَذَّةٍ في الـمَطْعَمِ؛ وعند الجوعِ يَسْتَوي خَشِنُهُ وحَسَنُهُ؛ فإذا ازدادَ الأكلُ؛ خاطَرَ بنفسِهِ؟!

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: بُنِيتِ الفتنةُ على ثلاثٍ: النساءِ؛ وهُنَّ فَخُّ إبليسَ المنصوبُ، والشرابِ؛ وهو سيفُهُ الـمُرْهَفُ، والدِّينارِ والدِّرْهَمِ؛ وهما سَهْماهُ المسمومانِ.

فمَنْ مال إلى النساءِ؛ لم يَصْفُ له عيشٌ، ومَنْ أحبَّ الشَّرابَ؛ لم يُمَتَّعْ بِعَقْلِهِ، ومَنْ أَحَبَّ الدينارَ والدِّرهَمَ؛ كانَ عبدًا لهما ما عاشَ.

○○○○○

النعيمُ لا يُدركُ بالنعيمِ

تأمَّلْتُ عَجَبًا، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطولُ طَريقُهُ ويكْثُرُ التَّعَبُ في تحصيلِه.

فإنَّ العلمَ لـمَّا كانَ أشرفَ الأشياءِ؛ لـمْ يَحْصُلْ إلَّا بالتَّعَبِ والسَّهَرِ والتَّكْرارِ وَهَجْرِ اللَّذَّاتِ والراحةِ، حتى قالَ بعضُ الفقهاءِ: بَقيتُ سِنينَ أشتهى الهريسةَ لا أقدِرُ؛ لأنَّ وقتَ بَيْعِها وقتُ سَماعِ الدرسِ!

ونحوُ هذا تحصيلُ المالِ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى المخاطَراتِ والأسفارِ والتَّعَبِ الكثيرِ.

وكذلكَ نَيْلُ الشَرفِ بالكرمِ والجُودِ؛ فإنَّه يَفْتَقِرُ إلى جهادِ النفسِ في بذلِ المحبوبِ، وربَّما آلَ إلى الفَقْرِ. وكذلك الشَّجاعةُ؛ فإنَّها لا تحصُلُ إلَّا بالمخاطرةِ بالنفسِ.

قالَ الشاعرُ:

لَوْلَا الـمشقَّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الجـودُ يُفْقِرُ[1] والإقدامُ قَتَّالُ

ومِن هذا الفنِّ تَحْصيلُ الثوابِ في الآخرة؛ فإنَّه يزيدُ على قوةِ الاجتهادِ والتعبُّدِ، أو على قَدْرِ وَقْعِ الـمَبْذولِ من المالِ في النفسِ، أو على قَدْرِ الصبرِ على فَقْدِ المحبوبِ ومنعِ النفسِ، مِنَ الجَزَعِ. وكذلك الزُّهْدُ يحتاجُ إلى صَبْرٍ عنِ الهوى، والعفافُ لا يكونُ

(١) هذا في الظاهر أما الحقيقة فقد قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مالٍ».

إِلَّا بِكَفِّ كَفِّ الشَّرَهِ.

ولولا ما عانى يوسُفُ عليه السلامُ؛ ما قِيلَ لَهُ: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٨].

ولله أقوامٌ ما رَضُوا مِن الفضائلِ إلَّا بتحصيل جميعِها؛ فهم يبالِغونَ في كلِّ علمٍ، ويجتهدونَ في كلِّ عملٍ، ويثابرونَ على كلِّ فضيلةٍ؛ فإذا ضَعُفَتْ أبدانُهُم عن بعضِ ذلك؛ قامتِ النِّيَّاتُ نائبةً، وهم لها سابقونَ. وأكملُ أحوالِهِم: إعراضُهُم عن أعمالِهِم؛ فهم يحتقرونَها مع التَّمامِ، ويعتذِرونَ من التقصيرِ.

ومنهم **مَن يزيدُ على هذا**، فيتشاغَلُ بالشُّكْرِ على التوفيقِ لذلك.

ومنهم **مَن لا يَرى ما عَمِلَ أصْلًا**؛ لأنَّه يرى نفسَه وعَمَلَه لسيِّدِهِ.

وبالعكسِ من المذكورِ من أربابِ الاجتهادِ حالُ أهلِ الكَسَلِ والشَّرَهِ والشَّهَواتِ؛ فَلَئِنِ التذُّوا بعاجِلِ الراحةِ؛ لقدْ أوجبتْ ما يزيدُ على كلِّ تعبٍ من الأسفِ والحسرةِ.

ومَن تَلَمَّحَ صَبْرَ يوسفَ عليه السلامُ وَعَجَلَةَ ماعزٍ؛ بانَ له الفرقُ، وفَهِمَ الرِّبْحَ مِن الخسرانِ؟!

ولقد تأمَّلْتُ نَيْلَ الدُّرِّ من البحرِ، فرأيتُهُ بعدَ معاناةِ الشَّدائِدِ.

ومَن تَفكَّرَ فيما ذكرتُه مَثَلًا؛ بانَتْ له أمثالٌ.

فالموفَّقُ من تَلَمَّحَ قِصَرَ المَوْسِمِ المعمولِ فيه، وامتدادَ زمانِ الجزاءِ الذي لا آخرَ له، فانتهبَ حتى اللَّحْظَةَ، وزاحمَ كلَّ فضيلةٍ؛ فإنَّها إذا فاتتْ؛ فلا وجهَ لاستدراكِها.

أَوَليسَ في الحديث: «**يقالُ للرَّجُلِ: اقرأ وارقَ؛ فمنزلُكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها**»[1].

فلو أنَّ الفِكْرَ عَمِلَ في هذا حقَّ العملِ؛ حُفِظَ القرآنُ عاجِلًا.

○○○○○

الإيمانُ يتبينُ عند البلاءِ

ليسَ المؤمنُ بالذي يؤدِّي فرائضَ العباداتِ صُورةً ويتجنَّبُ المحظوراتِ فحسبُ!، **إنَّما المؤمنُ هو الكاملُ الإيمانِ**، لا يَخْتَلِجُ في قلبِهِ اعتراضٌ، ولا يُساكِنُ نفسَهُ فيما يجري وسوسةٌ، وكلَّما اشتدَّ البلاءُ عليه؛ زادَ إيمانُهُ وقَوِيَ تسليمُه، وقد يَدْعو فلا يرى

---

(١) أحمد (٦٧٦٠)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤).

للإجابةِ أثرًا؛ وسِرُّه لا يتغيَّرُ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّه مملوكٌ، وله مالكٌ يتصرَّفُ بمقتضى إرادتِه.

فإن اختَلجَ في قلبِهِ اعتراضٌ؛ خَرَجَ مِن مقام العبوديَّةِ إلى مقام المناظرةِ؛ كما جرى لإبليسَ.

والإيمانُ القويُّ يَبينُ أثرُهُ عندَ قوةِ البلاءِ.

فأمَّا إذا رأيْنا مثلَ يحيى بنَ زكريا؛ تَسَلَّطَ عليه فاجِرٌ، فيأمُرُ بذبحِهِ، فَيُذْبَحُ! وربما اختلجَ في الطبعِ أنْ يقولَ: فهلَّا ردَّ عنه مَن جَعَلَهُ نبيًّا؟! وكذلك كلُّ تسلُّطٍ من الكفارِ على الأنبياءِ والمؤمنينَ؛ وما وَقَعَ رَدٌّ عنهم!

وقد ذَهَبَ يوسفُ بنُ يعقوبَ عليهما السلامُ، فبكى يعقوبُ ثمانينَ سنةً، ثم لم ييأسْ، فلما ذَهَبَ ابنُهُ الآخرُ؛ قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وقد دعا موسى عليه السلامُ على فرعونَ، فأجيبَ بعدَ أربعينَ سنةً.

وكم مِن بَلِيَّةٍ نزلتْ بمعظَّمِ القَدْرِ؛ فما زادَه ذلك إلَّا تسليمًا ورضًى!

فهناك يَبِينُ معنى قولِه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨]، وها هنا يَظْهَرُ قَدْرُ قوَّةِ الإيمانِ لا في رَكَعاتٍ.

قال الحسنُ البصريُّ: استوى الناسُ في العافيةِ؛ فإذا نَزَلَ البلاءُ؛ تبَاينوا.

○○○○○

تذكُّرُ نعيمَ الروحِ

ما زلتُ على عادةِ الخَلْقِ في الحُزْنِ على مَنْ يَموتُ مِن الأهلِ والأولادِ، ولا أتخايلُ إلَّا بِلَى الأبدانِ في القبورِ، فأحزنُ لذلك.

فَمَرَّتْ بي أحاديثُ قد كانتْ تَمُرُّ بي ولا أتفكَّرُ فيها، منها قولُ النبيِّ ﷺ: «**إنَّما نَفْسُ المؤمنِ طائرٌ تَعَلَّقَ في شَجَرِ الجَنَّةِ، حتَّى يَرُدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى جسدِهِ يومَ يَبْعثُهُ**»[١].

فرأيتُ أنَّ الرحيلَ إلى الراحةِ، وأنَّ هذا البدنَ ليس بشيءٍ؛ لأنه مَرْكَبٌ تفَكَّكَ وفَسَدَ، وسيُبنى جَديدًا يومَ البَعْثِ؛ فلا ينبغي أن يُتَفَكَّرَ في بِلاه، ولْتَسْكُنِ النفسُ إلى أنَّ الأرواحَ انتقلتْ إلى راحةٍ، فلا يبقى كَبيرُ حُزْنٍ، وأنَّ اللقاءَ للأحبابِ عن قُربٍ.

---

(١) أحمد (١٥٣٥٠)؛ وابن ماجه (٤٢٧١).

وإنَّما يَبْقَى الأسفُ لتعلُّقِ الخَلْقِ بالصُّورِ، فلا يرى الإنسانُ إلَّا جَسَدًا مُسْتَحْسَنًا قد نُقِضَ، فيحزنُ لِنَقْضِهِ.

والجسدُ ليس هو الآدميَّ، وإنما هو مَرْكَبُهُ؛ فالأرواحُ لا ينالها البِلى، والأبدانُ ليستْ بشيءٍ.

واعْتَبِرْ هذا بما إذا قَلَعْتَ ضِرْسَكَ، ورميتَه في حُفرةٍ؛ فهل عندكَ خَبَرٌ مما يَلْقَى في مُدَّةِ حياتِك؟! فحُكْمُ الأبدانِ حكمُ ذلك الضِّرسِ؛ لا تدري النفسُ ما يَلْقَى.

ولا ينبغي أنْ تَغْتَمَّ بتمزيقِ جسدِ المحبوبِ وبِلاه، واذْكُرْ تَنَعُّمَ الأرواحِ وقُرْبَ التجديدِ وعاجِلَ اللقاءِ؛ فإنَّ الفِكْرَ في تحقيقِ هذا يهوِّنُ الحزنَ ويسهِّلُ الأمرَ.

○○○○○

لا تجزعْ من البلاءِ

لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يَنْزَعِجَ من مرضٍ أو نزولِ موتٍ، وإنْ كانَ الطبعُ لا يُمْلَكُ؛ إلَّا أنَّه ينبغي له التصبُّرُ مهما أمكنَ: إمَّا لطلبِ الأجرِ بما يُعانِي، أو لبيانِ أثرِ الرِّضى بالقضاءِ، وما هي إلَّا لحظاتٌ ثم تَنْقَضي.

ولْيتفكَّرِ المُعَافَى من المرضِ في الساعاتِ التي كان يَقْلَقُ فيها: أين هي في زمانِ العافيةِ؟! ذَهَبَ البلاءُ وحَصَلَ الثوابُ؛ كما تذهبُ حلاوةُ اللَّذَّاتِ المحرَّمةِ ويبقى الوزرُ، ويمضي زمانُ التسخُّطِ بالأقدارِ ويبقى العتابُ.

وهل الموتُ إلَّا آلامٌ تزيدُ، فتعجزُ النفسُ عن حَمْلِها، فتذهبُ؟!

فليتصَوَّرِ المريضُ وجودَ الراحةِ بعدَ رحيل النفسِ وقد هانَ ما يَلْقى؛ كما يَتَصَوَّرُ العافيةَ بعد شُرْبِ الشَّرْبَةِ المرةِ.

ولا ينبغي أنْ يَقَعَ جَزَعٌ بِذِكْرِ البِلَى؛ فإنَّ ذلك شأنُ المركبِ، أما الراكبُ؛ ففي الجنةِ أو النارِ، وإنما ينبغي أن يَقَعَ الاهتمامُ الكليُّ بما يزيدُ في درجاتِ الفضائلِ قبلَ نُزولِ المعوِّقِ عنها؛ فالسعيدُ مَن وُفِّقَ لاغتنام العافيةِ، ثم يختارُ تحصيلَ الأفضلِ فالأفضلِ في زمن الاغتنامِ، وليَعْلَمْ أنَّ زيادةَ المنازلِ في الجنة على قَدْرِ التزيُّدِ من الفضائل ها هنا،

والعُمُرُ قصيرٌ، والفضائلُ كثيرةٌ؛ فلْيبالغْ في البِدارِ؛ فيا طولَ راحةِ التَّعِبِ! ويا فرحةَ المغمومِ! ويا سرورَ المحزونِ! ومتى تخايلَ دوامَ اللَّذَّةِ في الجنةِ، من غير منغِّصٍ ولا قاطعٍ؛ هان عليه كلُّ بلاءٍ وشِدَّةٍ.

ooooo

احذَرْ مراءاةَ الخلقِ

ما يكادُ يحبُّ الاجتماعَ بالناسِ إلَّا فارغٌ؛ لأنَّ المشغولَ القلبِ بالحقِّ يَفِرُّ من الخَلْقِ، ومتى تمكَّنَ فراغُ القلبِ من معرفةِ الحقِّ؛ امتلأَ بالخَلْقِ، فصارَ يعملُ لهم ومِن أجلِهِم، ويَهْلِكُ بالرِّياءِ، ولا يعلمُ.

وأعوذُ بالله مِن رؤيةِ النفسِ ورؤيةِ الخَلْقِ: فإنَّ مَنْ رأى نفسَهُ؛ تكَبَّرَ، والمتكبِّرُ أحمقُ؛ لأنَّه ما مِن شيءٍ يَتكَبَّرُ به إلَّا ولغيرِهِ أكثرُ منه. ومَن راءى الخَلْقَ؛ عَبَدَهُم وهو لا يعلمُ!

فأما العاملُ لله سبحانَه وتعالى؛ فهو بعيدٌ مِن الخَلْقِ؛ فإنْ تَقَرَّبوا إليه؛ سَتَرَ حالَه بما يوجِبُ بُعْدَهُم عنه.

وقد رأينا مَنْ يُرائي ولا يدْرِي، فيمتنعُ من المشي في السوقِ، ومن زيارةِ الإخوانِ، ومِن أن يشتريَ شيئًا بنفسِهِ! وتوهِمُهُ نفسُه أني أكرهُ مخالطةَ السُّوْقَةِ!! وإنما هذا يربِّي جاهًا بين العلماءِ؛ إذ لو خالَطَهُم؛ لامْتُحِيَ[1] جاهُهُ، وبَطَلَ تقبيلُ يَدِهِ!

وقد كان بشرُ الحافي يجلِسُ في مجلسٍ عند العطارِ.

وأبلغُ من هذا كلِّه أنَّ نبيَّنا ﷺ كان يَشْتَري حاجَتَهُ ويحمِلُها.

وخَرَجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ وهو أميرُ المؤمنينَ إلى السوقِ فاشْتَرى ثوبًا.

وقد كان طلحةُ بنُ مصرِّفٍ قارئَ أهلِ الكوفةِ، فلما كَثُرَ الناسُ عليه؛ مَشَى إلى الأعمشِ، فَقَرَأَ عليهِ، فمالَ الناسُ إلى الأعمشِ، وتَرَكوا طَلْحَةَ.

فأمَّا ضِدُّ هذه الحالِ؛ فحالةُ عابدٍ للخلقِ مُلَبِّسٍ.

وقد عَمَّ هذا جمهورَ الخَلْقِ، حاشا السَّلَفِ.

ooooo

---

(١) امتحي: ذهب أثره.

من أقبحِ المعاصي

كلُّ المعاصي قبيحةٌ، وبعضُها أقبحُ من بعضٍ:

فإنَّ الزِّنى من أقبح الذُّنوبِ؛ فإنَّه يُفسِدُ الفُرُشَ ويُغيِّرُ الأنسابَ.

وهو بالجارةِ أقبحُ: فقد رُوِيَ في «الصحيحينِ» من حديثِ ابنِ مسعودٍ؛ قالَ: قلتُ: يا رسول الله! أيُّ ذنبٍ أعظمُ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وهُو خَلَقَكَ**». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِن أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ معكَ**». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «**أَنْ تُزانِيَ حليلةَ جارِكَ**»[١]. وقد روى البخاري في «تاريخِه» من حديثِ المقدادِ بنِ الأسودِ عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قالَ: «**لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بعشرِ نسوةٍ أيسرُ من أَنْ يَزْنِيَ بامرأةِ جارِهِ، ولأَنْ يَسْرِقَ من عشرةِ أبياتٍ أيسرُ عليهِ من أن يَسْرِقَ من بيتِ جارِه**»[٢]. وإنما كانَ هذا؛ لأنَّه يَضُمُّ إلى معصيةِ الله عزَّ وجلَّ انتهاكَ حقِّ الجارِ.

ومن أقبحِ الذُّنوبِ أَنْ يَزْنِيَ الشيخُ؛ ففي الحديث: «**إنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِي**»[٣]؛ لأنَّ شهوةَ الطبع قد ماتَتْ، وليس فيها قوةٌ تَغْلِبُ؛ فهو يُحَرِّكُها ويبالغُ، فكانتْ معصيتُه عنادًا.

ومن المعاصي التي تُشْبِهُ المعاندةَ لُبْسُ الرجلِ الحريرَ والذهبَ، خصوصًا خاتَمَ الذهبِ الذي يتحلَّى به الشيخُ، وإنه مِن أَبْرَدِ الأفعال وأقبحِ الخطايا.

ومن هذا الفنِّ الرِّياءُ والتَّخاشُعُ وإظهارُ التزهُّدِ للخَلْقِ؛ فإنَّه كالعبادةِ لهم؛ معَ إهمالِ جانبِ الحقِّ عزَّ وجلَّ.

وكذلك المعاملةُ بالرِّبا الصريحِ، خصوصًا مِن الغنيِّ الكثيرِ المال.

ومِن أقبحِ الأشياءِ أَنْ يَطولَ المرَضُ بالشيخ الكبيرِ ولا يتوبَ مِن ذنْبٍ؛ ولا يعتذِرَ مِن زَلَّةٍ، ولا يَقْضِي دَيْنًا، ولا يوصي بإخراجِ حقٍّ عليه!

ومِن قبائح الذُّنوبِ أَنْ يتوبَ السَّارِقُ أو الظالمُ ولا يَرُدَّ المظالمَ. والـمُفَرِّطُ في الزكاةِ أو في الصلاةِ ولا يَقضِي.

---

(١) البخاري (٤٤٧٧)؛ ومسلم (٨٦).

(٢) أحمد (٢٣٣٤٢)؛ والتاريخ الكبير (٨/ ٥٤).

(٣) أحمد (٢٠٨٤٨)؛ والترمذي (٢٥٦٨)؛ والنسائي (٢٥٧٠).

ومِن أقبحِها أنْ يَحْنَثَ[(١)] في يمينِ طَلَاقِهِ ثمَّ يُقِيمَ مع المرأةِ!

وقِسْ على ما ذكرتُهُ؛ فالمعاصي كثيرةٌ، وأقبحُها لا يَخْفَى.

وهذه الـمُسْتَقْبَحَاتُ – فضلًا عن القبائحِ – تُشْبِهُ العنادَ للآمرِ، فيستحقُّ صاحِبُها اللعنَ ودوامَ العقوبةِ.

وإني لأرى شُرْبَ الخمرِ من ذلك الجنسِ؛ لأنَّها ليستْ مُشتهاةً لذاتِها ولا لريحِها ولا لطعمِها – فيما يُذْكَرُ –؛ إنَّما لَذَّتُها – فيما يُقالُ – بعدَ تَجَرُّعِ مرارَتِها؛ فالإقدامُ على ما لا يَدْعو إليه الطبعُ – إلى أنْ يَصِلَ التناوُلُ إلى اللَّذَّةِ – معاندةٌ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ إيمانًا يَحْجُزُ بيننا وبين مُخالفتِه، وتوفيقًا لما يُرْضِيه؛ فإنَّما نحنُ بِهِ وله.

○○○○○

كيف تتعاملُ مع غاضبٍ؟

متى رأيتَ صاحِبَكَ قدْ غَضِبَ، وأَخَذَ يَتكلَّمُ بما لا يَصْلُحُ؛ فلا ينبغي أنْ تَعْقِدَ على ما يقولُهُ خِنْصِرًا، ولا أنْ تؤاخِذَهُ به؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكرانِ، لا يَدْرِي ما يَجْرِي. بلِ اصْبِرْ لِفَورَتِهِ، ولا تعوِّلْ عليها؛ فإنَّ الشيطانَ قد غَلَبَهُ، والطبعَ قدْ هاجَ، والعقلَ قدِ اسْتَتَرَ.

ومتى أَخَذْتَ في نفسِكَ عليه، أو أجبْتَهُ بمُقتضى فعلِهِ؛ كنتَ كَعاقلٍ واجهَ مجنونًا، أو كَمُفِيقٍ عاتبَ مغمًى عليهِ؛ فالذَّنْبُ لكَ.

بل انظرْ بعينِ الرحمةِ، وتلمَّحْ تصريفَ القَدَرِ له، وتَفَرَّجْ في لَعِبِ الطبعِ به، واعلمْ أنَّه إذا انتبَهَ؛ نَدِمَ على ما جَرى، وعَرَفَ لكَ فَضلَ الصبرِ.

وأقلُّ الأقسامِ أنْ تُسْلِمَهُ فيما يَفْعَلُ في غضبِهِ إلى ما يَسْتَرِيحُ بِهِ.

وهذه الحالةُ يَنْبَغي أنْ يَتَلَمَّحَها الولدُ عند غضبِ الوالِدِ، والزوجةُ عندَ غضبِ الزَّوْجِ؛ فتتركَهُ يَشْتَفِي[(٢)] بما يقولُ، ولا تعوِّلُ على ذلك؛ فسيعودُ نادمًا معتذِرًا.

ومتى قُوبِلَ على حالتِهِ ومقالتِهِ؛ صارت العداوةُ متمكِّنَةً، وجازى في الإفاقةِ على ما فُعِلَ في حقِّهِ وقتَ السُّكْرِ.

---

(١) يحنث في يمينه: لم يبرّ فيها.

(٢) يشتفي: يذهب غيظه.

وأكثرُ الناس على غيرِ هذه الطريقِ: متى رأوا غضبانَ؛ قابَلُوهُ بما يقولُ ويعملُ، وهذا على غير مُقتضَى الحِكْمَةِ، بل الحِكْمَةُ ما ذكرتُهُ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

○○○○○

كن بعيدَ النظرة

كلُّ مَن لا يَتَلَمَّحُ العواقبَ ولا يستعدُّ لما يجوزُ وقوعُهُ؛ فليس بكاملِ العقلِ!

واعتبرْ هذا في جميعِ الأحوالِ، مثل أنْ يَغْتَرَّ بشبابِهِ، ويدومَ على المعاصي، ويُسوِّفَ بالتوبة؛ فربما أُخِذَ بَغْتَةً ولم يَبْلُغْ بعضَ ما أمَّلَ.

وكذلك إذا سَوَّفَ بالعملِ أو بحِفْظِ العلمِ؛ فإنَّ الزمانَ يَنْقَضي بالتسويفِ، ويفوتُ المقصودُ. وربما عَزَمَ على فعلِ خيرٍ أو وَقْفِ شيءٍ من مالِهِ، فسوَّفَ، فبُغِتَ.

فالعاقلُ مَن أخَذَ بالحزمِ في تَصْويرِ ما يجوزُ وقوعُهُ، وعَمِلَ بمقتَضَى ذلك؛ فإنِ امتدَّ الأجلُ؛ لم يَضُرَّهُ، وإنْ وَقَعَ الـمَخُوفُ؛ كان مُحْتَرِزًا.

ومما يتعَلَّقُ بالدُّنيا: أن يميلَ مع السلطانِ، ويسيءَ إلى بعضِ حواشِيه؛ ثقةً بقربه منهُ، فربَّما تَغَيَّرَ ذلك السلطانُ، فارتفعَ عدوُّه، فانتقم منهُ.

وقد يُعادي بعضَ الأصدقاءِ ولا يبالي به لأنَّه دونَه في الحالةِ الحاضرةِ؛ فربما صَعِدَتْ مرتبةُ ذلك، فاستَوْفَى ما أَسْلَفَهُ إليه من القبيحِ وزادَ.

○○○○○

الاستعدادُ ليومِ الرحيلِ

مَن عَلِمَ قُرْبَ الرحيلِ عن مكَّةَ؛ اسْتكثَرَ من الطوافِ، خُصوصًا إنْ كانَ لا يُؤَمِّلُ العَوْدَ؛ لِكِبرِ سنِّه، وضَعْفِ قوَّتِهِ.

فكذلك ينبغي لمن قارَبَهُ ساحلُ الأجلِ، بعُلوِّ سِنِّه أنْ يبادِرَ اللحظاتِ وَيَنْتَظِرَ الهاجِمَ بما يَصْلُحُ له؛ فقد كانَ في قوسِ الأجلِ مِنْزَعٌ[1] زمانَ الشبابِ، واسْتَرْخَى الوَتَرُ في المشيبِ عن سِيَةِ القوسِ[2]، فانحدر إلى القاب[3]، وضَعُفَتِ القُوَى، وما بقي إلَّا

---

(١) منزع: السهم البعيد المرمى.

(٢) سية القوس: ما عطف من طرفيه.

(٣) القاب: ما بين مقبض القوس والسية.

الاستِسْلامُ لمحارِبِ التَّلَفِ.

فالبدارَ البدارَ إلى التنظيفِ؛ ليكونَ القدومُ على طهارةٍ.

وأيُّ عيشٍ في الدُّنيا يَطيبُ لمن أيَّامُهُ السليمةُ تقرِّبُهُ إلى الهلاكِ، وصُعودُ عُمُرِهِ نزولٌ عن الحياةِ، وطولُ بقائِهِ نَقْصُ مَدَى المدةِ؟!

فليتفَكَّرْ فيما بينَ يديهِ، وهو أهمُّ مما ذكرناه.

أليس في «الصحيح»: **«ما منكُم أحدٌ إلَّا ويُعْرَضُ عليه مَقْعَدُهُ بالغداةِ والعشيِّ من الجنَّةِ أو النارِ، فيُقالُ: هذا مَقْعَدُكَ، حتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ»**[1]؟!

فوا أسفًا لمهدَّدٍ كم يُقْتَلُ قبلَ القَتْلِ! ويا طيبَ عيشٍ لموعودٍ بأزيدَ المُنى!

ولِيَعْلَمْ مَن شارفَ السبعينَ أنَّ النَّـفَسَ أنينٌ!

○○○○○

إمام الرسل وسيد الراضين ﷺ

مَن أرادَ أنْ يعلمَ حقيقةَ الرِّضى عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ في أفعالِهِ، وأنْ يدريَ مِن أيْنَ يَنْشَأُ الرِّضى؛ فليتفكَّر في أحوالِ رسولِ الله ﷺ.

فإنَّه لما تَكاملتْ معرفتُه بالخالقِ سبحانَه؛ رأى أنَّ الخالقَ مالِكٌ، وللمالِكِ التصرُّفُ في مملوكِهِ، ورآهُ حكيمًا لا يَصْنَعُ شيئًا عَبَثًا، فَسَلَّمَ تسليمَ مملوكٍ لحكيمٍ، فكانتِ العجائبُ تَجْرِي عليه، ولا يوجَدُ منه تغيُّرٌ، ولا مِن الطبع تأفُّفٌ، ولا يقولُ بلسانِ الحال: لو كان كذا! بل يَثْبُتُ للأقدارِ ثبوتَ الجبلِ لعواصِفِ الرِّياحِ.

هذا سيِّدُ الرسل ﷺ بُعِثَ إلى الخَلْقِ وحدَه، والكُفْرُ قد مَلأَ الآفاقَ، فَجَعَلَ يَفِرُّ من مكانٍ إلى مكانٍ، واستترَ في دار الخَيْزُرَانِ[2]، وهم يضرِبونَه إذا خَرَجَ، ويُدْمُونَ عَقِبَهُ، وأُلقي السَّلى[3] على ظهرِهِ[4]، وهو ساكتٌ ساكنٌ... ويخرُجُ كلَّ موسم فيقولُ: «مَنْ

---

(١) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) يعني دار الأرقم بن أبي الأرقم، وقد آلت الدار إلى الخيزران - زوجة المهدي الخليفة العباسي - فيما بعد.

(٣) السَّلي: غشاء رقيق يحيط بالجنين في بطن أمه ويخرج معه عند الولادة، والمؤلف يشير إلى إلقاء المشركين سلا الجزور على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد.

(٤) البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

يُؤويني؟ مَنْ يَنْصُرُني؟»[١] ... ثم خَرَجَ من مكَّةَ، فلم يقدِرْ على العَوْدِ إلَّا في جوارِ كافرٍ.

ولـم يوجَد من الطبعِ تأفُّفٌ، ولا من الباطنِ اعتراضٌ؛ إذْ لو كانَ غيرُهُ؛ لقالَ: يا ربِّ! أنت مالكُ الخَلْقِ، وأقدَرُ على النَّصْرِ؛ فلم أذَلُّ؟! كما قالَ عمرُ رضي الله عنه يومَ صُلْحِ الحُدَيْبيةِ: ألسْنا على الحقِّ؟! فلِمَ نُعْطي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟! ولما قالَ هذا؛ قالَ لهُ الرسولُ ﷺ: «إني عبدُ الله، ولن يُضَيِّعَني»[٢]. فَجَمَعتِ الكلمتانِ الأصلينِ اللَّذينِ ذكرناهما: فقولُهُ: «إني عبدُ الله»: إقرارٌ بالـمِلْكِ، وكأنَّه قال: أنا مملوكٌ يَفْعَلُ بي ما يشاء. وقولُه: «لن يُضَيِّعَني»: بيانُ حكمتِهِ وأنَّه لا يفعلُ شيئًا عَبَثًا.

ثم يُبْتَلى بالجوعِ، فَيَشُدُّ الحَجَرَ، ولله خزائنُ السماواتِ والأرضِ.

وتُقتَلُ أصحابُه، ويُشَجُّ وجهُهُ، وتُكسَرُ رَباعِيتُهُ[٣]، ويُمَثَّلُ بعمِّهِ.. وهو ساكتٌ.

ثم يُرْزَقُ ابنًا، ويُسْلَبُ منهُ، فيتعلَّلُ بالحسنِ والحسينِ، فيُخْبَرُ بما سَيَجري عليهما.

ويَسْكُنُ بالطبعِ إلى عائشةَ رضي الله عنها، فيُنَغَّصُ عيشُه بقذفِها.

ويبالِغُ في إظهارِ الـمُعْجزاتِ، فيُقامُ في وجهِهِ مُسَيْلَمَةُ والعَنْسِيُّ وابنُ صيادٍ.

ويُقيمُ ناموسَ الأمانةِ والصِّدقِ، فيقالُ: كذَّابٌ! ساحرٌ!

ثم يَعْلَقُهُ المرضُ فيوعَكُ كما يوعَكُ رجلانِ وهو ساكنٌ ساكتٌ.

فإنْ أخْبَرَ بحالِهِ؛ فَلِيُعَلِّمَ الصَّبْرَ.

ثم يُشَدَّدُ عليه الموتُ، فيُسْلَبُ روحَه الشريفةَ، وهو مضطجعٌ في كِساءٍ مُلَبَّدٍ وإزارٍ غليظٍ، هذا شيءٌ ما قَدَرَ على الصبرِ عليه كما ينبغي نبيٌّ قبلَه، ولوِ ابْتُلِيَتْ به الملائكةُ؛ ما صبرتْ.

○○○○○

---

(١) أحمد (١٤٠٤٧).

(٢) البخاري (٣١٨٢)؛ ومسلم (١٧٨٥).

(٣) رباعيته: الرباعية سنّ بين مقدم الأسنان والناب.

زوجتُك أجملُ!

أكثرُ شَهَواتِ الحسِّ النِّساءُ.

وقد يَرى الإنسانُ امرأةً في ثيابها، فيَتَخايلُ له أنَّها أحسنُ من زوجتِه، أو يَتَصوَّرُ بِفِكْرِهِ المستحسناتِ، وفكرُهُ لا يَنْظُرُ إلَّا إلى الحَسَن من المرأة، فيسعى في التزوُّجِ والتَّسرِّي؛ فإذا حَصَلَ لهُ مرادُه؛ لـمْ يَزَلْ يَنْظُرُ في عُيوبِ الحاصلِ التي ما كان يَتفَكَّرُ فيها، فيَمَلُّ، ويَطْلُبُ شيئًا آخَرَ، ولا يدْرِي أنَّ حُصولَ أغراضِهِ في الظاهرِ ربَّما اشتملَ على محَنٍ؛ منها أنْ تكونَ الثانيةُ لا دينَ لها أو لا عقلَ، أو لا محبةَ لها أو لا تدبيرَ، فيُفَوِّتُ أكثرَ ممَّا حَصَّلَ!

وهذا المعنى هو الذي أوْقَعَ الزُّناةَ في الفواحشِ؛ لأنَّهم يجالِسونَ المرأةَ حالَ استتارِ عُيوبِها عنهُم وظُهورِ محاسِنها، فتَلَذُّهُم تلك الساعةَ، ثم ينتقلونَ إلى أخرى!

فَلْيَعْلَم العاقلُ أنْ لا سبيلَ إلى حُصولِ مرادٍ تامٍّ كما يُريدُ، ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وما عِيبَ نساءُ الدُّنيا بأحسنَ من قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥].

وذو الأَنَفَةِ يأنَفُ من الوَسَخِ صورةً وعَيْبِ الخُلُقِ معنًى؛ فَلْيَقْنَعْ بما باطنُهُ الدينُ وظاهرُهُ السَّتْرُ والقناعةُ؛ فإنه يعيشُ مرفَّهَ السِّرِّ طيبَ القلبِ. ومتى اسْتكْثَرَ؛ فإنما يَسْتَكْثِرُ من شُغْلِ قلبِه ورقَّةِ دينِه.

○ ○ ○ ○ ○

فضلُ علمِ الحديثِ والمحدِّثينَ

علمُ الحديث هو الشريعةُ؛ لأنَّه مُبَيِّنٌ للقرآنِ، وموضِّحٌ للحلالِ والحرامِ، وكاشفٌ عن سيرةِ رسولِ الله ﷺ وسِيَرِ أصحابِه.

وقد مَزَجوهُ بالكَذِبِ، وأدْخَلوا في المنقولاتِ كلَّ قبيحٍ.

فإذا وُفِّقَ الزَّاهدُ والواعظُ؛ لم يَذْكُرا إلَّا ما شَهِدَا بصحَّتِهِ. وإنْ حُرِمَا التوفيقَ؛ عَمِلَ الزاهدُ بكلِّ حديثٍ يَسْمَعُهُ؛ لحُسْنِ ظنِّه بالرُّواةِ! وقال الواعظُ كلَّ شيءٍ يراهُ؛ لجَهْلِهِ

بالتصحيح! فَفَسَدتْ أحوالُ الزَّاهِدِ، وانحرفَ عن جادةِ الهُدى، وهو لا يعلمُ.

فقدْ بَنَوْا على فسادٍ، فَفَسَدَتْ أحوالُ الواعظِ والموعوظِ؛ لأنَّه يَبْني كلامَه على أشياءَ فاسدةٍ ومُحالاتٍ.

ولقد كان جماعةٌ من المتزهِّدينَ يعمَلونَ على أحاديثَ ومنقولاتٍ لا تَصِحُّ، فيضيعُ زمانُهم في غير المشروعِ، ثم يُنْكِرونَ على العلماءِ استعمالَهم للمباحاتِ، وَيَرَونَ أنَّ التَّجَفُّفَ هو الدينُ!

وكذلك الوعَّاظُ يُحَدِّثونَ الناسَ بما لا يَصِحُّ عن الرسولِ ﷺ ولا أصحابِهِ؛ فقد صارَ المحالُ عندَهم شريعةً.

فسبحانَ من حَفِظَ هذه الشريعةَ بأخبارِ أخيارٍ، يَنْفَونَ عنها تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المبطلينَ!

○○○○○

حقيقةُ عبيدِ الشهواتِ

بَلَغَني عن بعضِ فُسَّاقِ القُدماءِ أنَّه كانَ يقولُ: ما أرى العيشَ غيرَ أنْ تُتْبعَ النفسَ هواها؛ فمخطئًا أو مُصِيبًا!

فتدبَّرْتُ حالَ هذا، وإذا به ميِّتُ النفسِ، ليس له أَنَفَةٌ على عِرْضِهِ، ولا خوفُ عارٍ!

ومثلُ هذا ليس في مِسْلاَخِ[1] الآدميينَ!

فإنَّ الإنسانَ قد يُقْدِمُ على القَتْلِ لئلَّا يُقالَ: جبانٌ. ويَحْمِلُ الأثقالَ ليُقالَ: ما قَصَّرَ. ويخافُ العارَ، فَيَصْبِرُ على كلِّ آفةٍ مِن الفقرِ، وهو يَسْتُرُ ذلك، حتى لا يُرى بعينٍ ناقصةٍ. حتى إنَّ الجاهلَ إذا قيلَ لهُ: يا جاهلُ! غَضِبَ.

فأما مَن لا يُبالي أن يُرى سكرانَ، ولا يُهِمُّهُ إنْ شُهِرَ بين الناسِ، ولا يؤلِـمُهُ ذِكْرُ الناسِ له بالسَّوْءِ؛ فذاكَ في عِدادِ البهائمِ.

وهذا الذي يريدُ أنْ يُتْبِعَ النفسَ هواها؛ لا يَلْتَذُّ؛ إلَّا ألَّا يخافَ عَنَتًا ولا لومًا، ولا يكونُ له عِرْضٌ يَحْذَرُ عليه؛ فهو بَهيمةٌ في مِسْلاخِ إنسانٍ.

---

(١) مسلاخ: جلد.

وإلَّا؛ فأيُّ عيشٍ لـمَن شربَ الخمرَ، وأُخِذَ عَقيبَ ذلك، وضُرِبَ، وشاعَ في الناسِ ما قد فُعِلَ به؟! أما يَفي ذلك باللَّذَّة؟! لا؛ بل يَرْبو(١) عليها أضعافًا.

وأيُّ عيشٍ لـمَنْ ساكَنَ الكسلَ: إذا رأى أقرانَه قد بَرَّزوا في العلم وهو جاهلٌ، أوِ اسْتَغْنَوا بالتجارة وهو فقيرٌ؟! فهل يَبْقى للالتذاذِ بالكَسَلِ والراحةِ معنى؟! ولو تَفَكَّرَ الزاني في الأُحدوثَةِ عنه، أو تصوَّرَ أَخْذَ الحَدِّ منه؛ لَكَفَّ الكَفَّ؛ غيرَ أنَّه يرى لَذَّةً حاضرةً كأنها لَـمْعُ برقٍ، ويا شؤمَ ما أعقبتْ مِن طول الأسى!

هذا كلُّه في العاجلِ، فأمَّا الآجلُ؛ فَمَنْغَصَةُ العذابِ دائمةٌ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

نسألُ اللهَ أَنَفَةً من الرذائلِ، وهِمَّةً في طلبِ الفضائلِ؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

○○○○○

الذنبُ لا يُنسَى

قد تَبْغَتُ العُقوباتُ، وقد يؤخِّرُها الحِلْمُ.

والعاقلُ مَن إذا فَعَلَ خطيئةً؛ بادَرَها بالتوبة.

فكم مغرورٍ بإمهالِ العُصاةِ لم يُمْهَلْ!

قال عبدُ المجيدِ بنُ عبدِ العزيزِ: كان عندَنا بخُراسانَ رجلٌ كَتَبَ مُصْحَفًا في ثلاثةِ أيامٍ، فَلَقِيَهُ رجلٌ، فقالَ: في كم كَتَبْتَ هذا؟ فأومأ بالسبَّابةِ والوسطى والإبهام، وقالَ: في ثلاثٍ، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فجفَّتْ أصابعُهُ الثلاثُ، فلم ينتفعْ بها فيما بعدُ.

وخَطَرَ لبعضِ الفُصَحاءِ أنَّه يَقْدِرُ أنْ يقولَ مثلَ القرآنِ! فصَعِدَ إلى غرفةٍ، فانفردَ فيها، وقالَ: أمْهِلوني ثلاثًا! فصَعِدوا إليه بعد الثلاثِ، ويَدُهُ قد يَبِسَتْ على القلم، وهو ميِّتٌ.

وقد تتأخَّرُ العقوبةُ وتأتي في آخرِ العُمُرِ؛ فيا طولَ التَّعثيرِ مع كِبَرِ السِّنِّ لذُنوبٍ كانت في الشبابِ!

فالحذرَ الحذرَ من عواقبِ الخطايا، والبدارَ البدارَ إلى محْوِها بالإنابةِ؛ فلها تأثيراتٌ قبيحةٌ إنْ أسْرَعْتَ، وإلَّا اجتمعتْ وجاءتْ.

---

(١) يربو: يزيد.

ضلالُ أهلِ الجاهلية

طالَ تعجُّبي من أقوامٍ لهم أَنَفَةٌ، وعندَهم كِبْرٌ زائدٌ في الحدِّ!

خُصوصًا العربَ الذين من كلمةٍ ينفِرونَ ويحاربَون ويَرْضَوْنَ بالقَتْلِ!حتى إنَّ قومًا منهم أدركوا الإسلامَ، فقالوا: كيفَ نَرْكَعُ ونسجُدُ فتَعْلونا أستاهُنا؟[١].

ومع هذه الأَنَفَةِ؛ يَذِلُّونَ لِـمَنْ هُم خيرٌ منه؛ هذا يَعْبُدُ حَجَرًا! وهذا يَعْبُدُ خشبةً! وقد كان قومٌ يعبُدون الخيلَ والبقرَ!

وإنَّ هؤلاء لأخسُّ من إبليسَ؛ فإنَّ إبليسَ أنِفَ - لادِّعائِهِ الكمالَ - أنْ يَسْجُدَ لناقصٍ، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[ص: ٧٦]! وفرعونُ أنِفَ أنْ يَعْبُدَ شيئًا أصلًا!

فالعجبُ من ذلِّ هؤلاءِ المفتخِرينَ المتعاظِمينَ المتكبِّرينَ لحجرٍ أو خشبةٍ! وإنما ينبغي أن يَذِلَّ الناقصُ للكاملينَ!!

وقد أُشيرَ إلى هذا في ذَمِّ الأصنامِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ﴾[الأعراف: ١٩٥]، والمعنى: أنتم لكم هذه الآلاتُ المدرِكةُ، وهم ليس لهم؛ فكيفَ يَعْبُدُ الكاملُ الناقصَ؟!

غيرَ أنَّ هوى القومِ في متابعةِ الأسلافِ واستحلاءِ ما اخترعوهُ بآرائِهِم غطَّى على العقولِ فلمْ تتأمَّلْ حقائقَ الأمورِ!

ثم غطَّى الحسدُ على أقوامٍ فتَركوا الحقَّ وقد عَرَفوهُ!

فأميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ يُقِرُّ برسولِ الله، ويقصِدُه ليؤمنَ به، ثم يعودُ فيقولُ: لا أؤمنُ برسولٍ ليسَ من ثقيفٍ!

وأبو جهلٍ يقولُ: والله؛ ما كَذَبَ محمدٌ قطُّ، ولكنْ؛ إذا كانتِ السِّدانَةُ[٢] والحِجَابَةُ[٣] في بني هاشمٍ ثم النبوَّةُ؛ فما بَقِيَ لنا؟!

وأبو طالبٍ يرى المعجزاتِ، ويقولُ: إني لأعلمُ أنَّكَ على الحقِّ، ولولا أن تُعَيِّرَني

---

(١) أستاهنا: أعجازنا.

(٢) السدانة: خدمة الكعبة.

(٣) الحِجَابة: حراسة الحجيج.

نساءُ قريشٍ؛ لأقْرَرْتُ بها عَيْنَكَ.

فنعوذُ باللهِ من ظُلمةِ حَسَدٍ، وغِيابةِ كِبْرٍ، وحماقةِ هوىً يغطِّي على نورِ العقلِ، ونسألُهُ إلهامَ الرُّشْدِ والعملَ بمقتضى الحقِّ.

○○○○○

مَنْعُ الدنيا نعمةٌ تحتاج إلى شكر

تفكَّرْتُ في قولِ شيبانَ الراعي لسفيانَ: يا سفيانُ! عُدَّ منعَ اللهِ إياكَ عطاءً منه لك؛ فإنَّه لم يَمْنَعْكَ بُخلًا، إنما مَنَعَكَ لُطْفًا. فرأيتُه كلامَ مَن قد عَرَفَ الحقائقَ.

فإنَّ الإنسانَ قد يريدُ المستَحْسَناتِ الفائقاتِ فلا يَقْدِرُ، وعَجْزُهُ أصلحُ له، لأنَّه لو قَدَرَ عليهنَّ؛ تشتَّتَ قلبُه: إما بِحِفْظِهِنَّ، أو بالكسبِ عليهنَّ. فإنْ قَوِيَ عِشْقُهُ لهنَّ؛ ضاعَ عُمُرُهُ، وانقلبَ همُّ الآخرةِ إلى الاهتمامِ بهِنَّ. فإنْ لم يُرِدْنَهُ؛ فذاكَ الهلاكُ الأكبرُ. وإنْ طَلَبْنَ نفقةً لم يُطِقْها؛ كانَ سببَ ذَهابِ مروءتِهِ وهلاكِ عِرْضِهِ. وإن ماتَ معشوقُهُ؛ هلكَ هو أسفًا. فالذي يَطْلُبُ الفائقَ يَطْلُبُ سكِّينًا لذبحِهِ وما يعلمُ.

وكذلك إنفاذُ قَدْرِ القوتِ؛ فإنَّه نعمةٌ، وفي «الصحيحينِ»: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «اللهمَّ! اجعلْ رِزْقَ آلِ محمدٍ قوتًا»[(١)]. ومتى كَثُرَ؛ تشتَّتَ الهمُّ.

فالعاقلُ مَن عِلِمَ أنَّ الدُّنيا لم تُخْلَقْ للتَّنعيمِ، فَقَنَعَ بدفعِ الوقتِ على كلِّ حالٍ.

○○○○○

نصيحةٌ لكبارِ السنِّ

كنتُ أسمعُ عليَّ بنَ الحسينِ الواعظَ يقولُ على المنبرِ: واللهِ؛ لقدْ بَكَيْتُ البارحةَ مِن يَدِ نفسي.

فبَقِيتُ أنا أتفكَّرُ وأقولُ: أيَّ شيءٍ قد فَعَلَتْ نفسُ هذا حتى يبكي؟! هذا رجلٌ متنعمٌ، له الجواري التركيَّاتُ، وقد بَلَغَني أنه تزوَّجَ في السِّرِّ بجُمْلَةٍ من النساءِ، ولا يَطْعَمُ إلَّا الغايةَ من الدَّجاجِ والحلْوى، ولهُ الدَّخْلُ الكثيرُ، والمالُ الوافرُ، والجاهُ العريضُ،

---

(١) البخاري (٦٤٦٠)؛ ومسلم (١٠٥٥).

والأفضالُ على النَّاسِ، وقد حَصَّلَ طَرَفًا من العلمِ، واستعبدَ كَثيرًا من العلماءِ بمعروفِهِ، وراحتُهُ دائمةُ النَّدى؛ فما الذي يُبْكِيهِ؟!

فتفكَّرْتُ، فعلمتُ أنَّ النفسَ لا تَقِفُ عندَ حَدٍّ، بل تَرومُ من اللَّذَّاتِ ما لا مُنْتَهى له، وكلَّما حَصَلَ لها غَرَضٌ؛ بَرَدَ عندَها وطلبتْ سواه، فيفنَى العُمُرُ، ويَضْعُفُ البدنُ، ويَقَعُ النَّقْصُ، ويَرِقُّ الجاهُ، ولا يَحْصُلُ المرادُ.

وأبلهُ البُلْهِ الشيخُ الذي يَطْلُبُ صَبِيَّةً! ولَعَمْري؛ إنَّ كمالَ المُتْعَةِ إنَّما يكونُ بالصِّبا، ومتى لم تكنِ الصبيَّةُ بالغةً؛ لم يَكْمُل الاستمتاعُ! فإذا بَلَغَتْ؛ أرادتْ كَثْرَةَ الجماعِ، والشيخُ لا يقدِرُ! فإنْ حَمَلَ على نفسِه؛ لم يَبْلُغْ مُرادَها، وهَلَكَ سَريعًا.

ولا ينبغي أن يَغْتَرَّ بشهوتِهِ الجماعَ؛ فإنَّ شهوتَهُ كالفَجْرِ الكاذبِ، وقد رأيْنا شَيْخًا اشترى جاريةً، فباتَ مَعَها، فانْقَلَبَ عنها مَيْتًا.

وإن قَنِعَ الشيخُ بالاستمتاعِ من غيرِ وَطْءٍ؛ فهي لا تَقْنَعُ، فتصيرُ كالعَدُوِّ لهُ؛ فربَّما غَلَبَها الهوى فَفَجَرَتْ، أو احتالتْ على قتلِهِ.

وقبيحٌ بمَن عَبَرَ الستينَ أنْ يَتَعَرَّضَ بكثرةِ النساءِ!

فإنِ اتَّفَقَ مع صاحبةِ دينٍ قبلَ ذلك؛ فليرعَ لها معاشَرَتَها، وليتمِّمْ نَقْصَهُ عندَها؛ تارةً بالإنفاق، وتارةً بحُسْنِ الخُلُقِ، وليَزِدْ في تعريفِها أحوالَ الصالحاتِ والزَّاهِداتِ، ولْيُكثِرْ من ذِكْرِ القيامةِ وذمِّ الدُّنيا.

فإنْ قَدَرَ أنْ يَشْغَلَها بحَمْلٍ أو ولدٍ؛ عَرْقَلَها به[1]، فاسْتَبْقَى قُوَّتَه في مدةِ اشتغالِها بذلك. فإنْ وَطِىءَ؛ فليصبِرْ عنِ الإنزالِ حِفْظًا لقوَّتِهِ وقضاءً لحقِّها.

وقد قيلَ لبشرٍ: لِـمَ لَـمْ تَتَزَوَّجْ؟ فقالَ: على ماذا أغُرُّ مسلمةً؛ وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

○○○○○

---

(١) عرقلها به: أشغلها وصعّب عليها أمرها.

السعيدُ من وُعظ بغيرِه

أعجبُ الأشياءِ اغترارُ الإنسانِ وتأميلُهُ الإصلاحَ فيما بعدُ!

وليس لهذا الأملِ منتهًى ولا للاغترارِ حدٌّ؛ فكلَّما أصبحَ وأمسى معافًى؛ زادَ الاغترارُ وطالَ الأملُ.

وأيُّ موعظةٍ أبلغُ مِن أنْ تَرَى ديارَ الأقرانِ وأحوالَ الإخوانِ وقُبورَ المحبوبينَ، فتعلمَ أنَّكَ بعدَ أيامٍ مثلُهم، ثمَّ لا يَقَعُ انتباهٌ حتَّى يَنْتَبِهَ الغيرُ بكَ؟! وهذا واللهِ شأنُ الـحَمْقَى! حاشا مَن لهُ عَقْلٌ أنْ يَسْلُكَ هذا الـمَسْلَك.

بلى واللهِ؛ إنَّ العاقلَ لَيبادِرُ السَّلامةَ، فيدَّخِرُ من زَمَنِها للزَّمِنِ[1]، ويتزوَّدُ عندَ القدرةِ على الزَّادِ لوقتِ العُسْرَةِ، خُصوصًا لِـمَنْ قد عَلِمَ أَنَّ مراتبَ الآخرةِ إنَّما تَعْلو بمقدارِ علوِّ العملِ لها، وأن التَّدارُكَ بعدَ الفَوْتِ لا يمكنُ.

وقدِّرْ أنَّ العاصيَ عُفِيَ عنه؛ أينالُ مراتِبَ العمَّالِ؟!

ومَن أجالَ على خاطِرِهِ ذِكْرَ الجَنَّةِ التي لا موتَ فيها ولا مرضَ ولا نومَ ولا غَمَّ، بل لَذَّاتُها متَّصلةٌ من غيرِ انقطاعٍ، وزيادَتُها على قَدْرِ زيادةِ الجِدِّ ها هنا؛ انْتَهَبَ هذا الزمانَ؛ فلم يَنَمْ إلَّا ضرورةً، ولم يغفُلْ عن عِمارةِ لحظةٍ.

ومَن رأى أنَّ ذنبًا قد مضتْ لَذَّاتُهُ وبقيتْ آفاتُهُ دائمةً؛ كفاه ذلك زاجرًا عن مثلِه؛ خُصوصًا الذُّنوبَ التي تتَّصِلُ آثارُها؛ مثلَ أنْ يَزْنِيَ بذاتِ زوجٍ، فَتَحْمِلَ منه، فَتُلْحِقَ بالزوجِ، فيُمْنَعَ الميراثَ أهلُه، ويأخُذَهُ مَن ليس مِن أهلِهِ، وتتغيَّرَ الأنسابُ والفُرُشُ، ويتَّصِلَ ذلك أبدًا، وكلُّه شُؤمُ لحظةٍ.

فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ توفيقًا يُلْهِمُ الرَّشادَ ويمنعُ الفسادَ؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

○○○○○

---

(١) الزّمن: وقت العاهة والمرض.

الطريقُ إلى الجنةِ

والله؛ إني لأتخايَلُ دخولَ الجنةِ، ودوامَ الإقامةِ فيها؛ من غير مَرَضٍ، ولا بُصاقٍ، ولا نومٍ، ولَا آفةٍ تَطْرأُ! بل صِحَّةٌ دائمةٌ، وأغراضٌ متصلةٌ، لا يَعْتَوِرُها مُنَغِّصٌ، في نعيم متجدِّدٍ في كلِّ لحظةٍ، إلى زيادةٍ لا تتناهى.. فأطيشُ، ويكادُ الطبعُ يَضيقُ عن تصديقِ ذلك، لولا أنَّ الشرعَ قد ضَمِنَهُ!

ومعلومٌ أنَّ تلكَ المنازلَ إنَّما تكونُ على قَدْرِ الاجتهادِ ها هنا.

فوا عجبًا مِن مُضَيِّعٍ لحظةٍ فيها! فتسبيحةٌ تَغْرِسُ له في الجنةِ نَخْلَةً أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها.

فكلُّ الآفاتِ والمخافاتِ في نهارِ الأجلِ، وقد اصفرَّتْ شَمْسُ العُمُرِ؛ فالبدارَ البدارَ قبلَ الغُروبِ!

ولا مُعِينَ يرافِقُ على تلكَ الطَّرِيقِ إلَّا الفِكْرُ إذا جَلَسَ مع العقل فتذاكَرا العواقبَ؛ فإذا فرغَ ذلك المجلسُ؛ فالنَّظَرُ في سِيَرِ الـمُجِدِّينَ؛ فإنَّه يعودُ مُسْتَجْلِبًا للفِكْرِ منها شَتَّى الفضائلِ، والتوفيقُ مِن وراءِ ذلك، ومتى أرادَكَ لشيءٍ؛ هيَّأكَ له.

فأمَّا مخالطةُ الذينَ ليس عندَهم خَبَرٌ إلَّا من العاجلةِ فهو من أكبرِ أسبابِ مَرَضِ الفَهْمِ وعِلَلِ العَقْلِ، والعُزْلَةُ عن الشرِّ حِمْيَةٌ[1]، والحِمْيَةُ سببُ العافيةِ.

○○○○○

أسبابُ الهمومِ والغمومِ

رأيتُ سببَ الـهُمومِ والغُمومِ: الإعراضَ عن الله عزَّ وجلَّ، والإقبالَ على الدُّنيا. وكلَّما فاتَ منها شيءٌ؛ وَقَعَ الغمُّ لِفَواتِهِ.

فأمَّا مَن رُزِقَ معرفةَ الله تعالى؛ استراحَ؛ لأنَّه يَسْتَغْنِي بالرِّضَى بالقضاءِ، فمهما قُدِّرَ له؛ رَضِيَ، وإنْ دعا فلم يَرَ أثَرَ الإجابةِ؛ لم يَخْتَلِجْ في قلبِهِ اعتراضٌ؛ لأنَّه مملوكٌ مُدَبَّرٌ، فتكونُ هِمَّتُهُ في خدمةِ الخالقِ.

ومن هذه صفتُهُ؛ لا يؤثِرُ جَمْعَ مالٍ، ولا مخالطةَ الخَلْقِ، ولا الالتذاذَ بالشَّهَواتِ؛

---

(١) حمية: وقاية مما يضر.

لأنَّه إمَّا أنْ يكونَ مقصِّرًا في المعرفة؛ فهو مقبلٌ على التعبُّدِ المحضِ، يَزْهَدُ في الفاني لينالَ الباقي، وإمَّا أنْ يكونَ له ذَوْقٌ في المعرفةِ؛ فإنَّه مشغولٌ عنِ الكلِّ بصاحبِ الكلِّ، فتراهُ متأدِّبًا في الخَلْوَةِ به، مستأنِسًا بمناجاتِهِ، مستوحِشًا مِن مخالطةِ خَلْقِهِ، راضيًا بما يُقَدِّرُ له. فعيشُهُ معه كعيشِ محبٍّ قَدْ خلا بحبيبِهِ؛ لا يريدُ سواهُ، ولا يهتمُّ بغيرِهِ.

فأمَّا مَن لم يُرْزَقْ هذه الأشياء؛ فإنَّه لا يزالُ في تنغيصٍ، متكدِّرَ العيشِ؛ لأنَّ الذي يطلبُه من الدُّنيا لا يقدِرُ عليه، فيبقى أبدًا في الحَسَراتِ، مع ما يفوتُهُ مِن الآخرةِ بسوءِ المعاملةِ.

نسألُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يَسْتَصْلِحَنا له؛ فإنَّه لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بِهِ.

○○○○○

أخلاقُ الكرامِ

مِن البَلَهِ أنْ تبادِرَ عدوًّا أو حسودًا بالـمُخاصَمَةِ.

وإنما ينبغي إن عَرَفْتَ حالَه أن تُظْهِرَ له ما يوجِبُ السَّلامةَ بينَكما؛ إنِ اعتذرَ قَبِلْتَ، وإن أَخَذَ في الخُصومةِ صَفَحْتَ، وأريْتَهُ أنَّ الأمرَ قريبٌ، ثم تُبْطِنُ الحذرَ منهُ؛ فلا تَثِقُ به في حالٍ، وتتجافاهُ باطنًا، مع إظهارِ المخالطةِ في الظاهرِ.

فإذا أردتَ أنْ تُؤذِيَهُ؛ فأوَّلُ ما تؤذيهِ به إصلاحُك واجتهادُك فيما يرفعُك.

ومِن أعظمِ العُقوبةِ له العفوُ عنهُ للهِ.

وإنْ بالغَ في السَّبِّ؛ فبَالِغْ في الصَّفْحِ؛ تُنِبْ عنكَ العوامَّ في شَتْمِهِ، ويَحْمَدُكَ العلماءُ على حِلْمِكَ[١]! وما تؤذيهِ به من ذلك خيرٌ مما تؤذيهِ بِهِ مِن كلمةٍ إذا قُلْتَها له سَمِعْتَ أضعافَها.

ثم بالخُصومةِ تُعْلِمُهُ أنَّك عدوُّه؛ فيأخذُ الحذرَ، ويَبْسُطُ اللسانَ، وبالصفحِ يَجْهَلُ ما في باطِنِكَ؛ فيمكِنُكَ حينئذٍ أن تَشْتَفِيَ منه، أما أن تَلْقَاهُ بما يؤذي دِينَك؛ فيكونُ هو الذي قدِ اشتفى منكَ! وما ظَفِرَ قطُّ من ظَفِرَ به الإثمُ، بل الصَّفْحُ الجميلُ.

وإنَّما يَقَعُ هذا مِمَّن يرى أنَّ تسليطَه عليه: إمَّا عقوبةٌ لذنبٍ، أو لرفعِ درجةٍ، أو للابتلاءِ؛ فهُو لا يَرى الخصمَ، وإنما يَرى القُدرةَ.

---

(١) ينبغي أن يكون الباعث على الحلم والعفو هو رضى الله عزَّ وجلَّ لا ثناء المخلوقين.

الخيرُ في اختيارِ الله

إذا وقعتَ في محنةٍ يَصْعُبُ الخلاصُ منها؛ فليسَ لك إلّا الدُّعاءُ واللَّجَأُ إلى الله بعدَ أنْ تُقدِّمَ التوبةَ من الذُّنوبِ؛ فإنَّ الزَّلَلَ يوجِبُ العقوبةَ؛ فإذا زالَ الزَّلَلُ بالتوبةِ من الذُّنوبِ؛ ارتفعَ السببُ.

فإذا تُبْتَ ودَعَوْتَ ولم تَرَ للإجابةِ أثرًا؛ فَتَفَقَّدْ أمرَكَ؛ فربَّما كانتِ التوبةُ ما صَحَّتْ، فصحِّحْها، ثم ادْعُ، ولا تَمَلَّ من الدُّعاءِ؛ فربَّما كانتِ المصلحةُ في تأخيرِ الإجابةِ، وربَّما لم تكنِ المصلحةُ في الإجابةِ؛ فأنتَ تُثابُ وتُجابُ إلى منافِعِكَ، ومِن منافِعِكَ أنْ لا تُعْطَى ما طَلَبْتَ، بل تُعَوَّضَ غَيْرَهُ.

فإذا جاء إبليسُ، فقالَ: كم تَدْعوهُ ولا تَرى إجابةً! فقلْ: أنا أتعبَّدُ بالدُّعاءِ، وأنا موقِنٌ أنَّ الجوابَ حاصِلٌ؛ غيرَ أنَّه ربَّما كان تأخيرُهُ لبعضِ المصالح عليَّ مناسِبٌ، ولو لم يحصُلْ؛ حَصَلَ التعبُّدُ والذُّلُّ.

فإيَّاك أنْ تسألَ شيئًا إلَّا وتقرِنَه بسؤالِ الخِيَرَةِ؛ فربَّ مطلوبٍ من الدُّنيا كان حصولُه سببًا للهلاكِ.

وإذا كنتَ قد أُمِرتَ بالمشاورةِ في أمور الدُّنيا لجليسِكَ؛ ليُبيِّنَ لك في بعضِ الآراءِ ما يُعْجِزُ رأيَكَ، وترى أنَّ ما وَقَعَ لك لا يَصْلُحُ؛ فكيفَ لا تسألُ الخيرَ ربَّكَ وهو أعلمُ بالمصالحِ؟! والاستخارةُ من حُسْنِ المشاورةِ.

○○○○○

مفاسدُ سؤالِ الخلقِ

العَجَبُ مِن الذي أَنِفَ الذُّلَّ! كيف لا يصبِرُ على جافِّ الخبزِ، ولا يتعرَّضُ لـمِنَنِ الأنذالِ؟!

أتراه ما يعلمُ أنَّه ما بقيَ صاحبُ مروءةٍ؟! وأنَّه إنْ سألَ؛ سألَ بخيلًا لا يُعطي؛ فإنْ أعطى نَزْرًا(١)؛ فإنَّه يَسْتَعْبِدُ المعطَى بذلك العُمُرَ؟!

---

(١) نزرًا: قليلًا.

ثم ذاك القَدْرُ النَّزْرُ يذهبُ عاجلًا، وتبقى الـمِنَنُ والخجلُ ورؤيةُ النفسِ بعينِ الاحتقارِ؛ إذ صارتْ سائلةً، ورؤيةُ المعْطِي بعينِ التعظيم أبدًا.

ثم يوجِبُ ذلك السكوتَ عن معائبِ الـمُعْطِي، والبدارَ إلى قضاءِ حقوقِهِ وخدمتِهِ فيما بَقِي.

وأعجبُ من هذا مَنْ يَقْدِرُ أنْ يَسْتَعْبِدَ الأحرارَ بقليلِ العطاءِ الفاني ولا يفعلُ؛ فإنَّ الحُرَّ لا يُشْتَرى إلَّا بالإحسانِ.

قالَ الشاعرُ:

تَفَضَّلْ على مَنْ شِئْتَ واعْنَ بأمرِهِ ... فأنتَ ولوْ كانَ الأميرَ أميرُهُ
وكُنْ ذا غِنًى عَمَّنْ تشاءُ مِن الوَرَى ... ولو كانَ سُلْطانًا فأنتَ نَظِيرُهُ
ومَنْ كُنْتَ مُحْتاجًا إليه وواقِفًا ... على طَمَعٍ منهُ فأنتَ أسيرُهُ

○○○○○

أسبابُ تراخي الخلقِ في الإقبالِ على اللهِ تعالى

تأملتُ على الخلقِ، وإذا هم في حالةٍ عجيبةٍ، يكادُ يُقْطَعُ معها بفسادِ العقلِ!

وذلك أنَّ الإنسانَ يَسْمَعُ المواعِظَ، وتُذْكَرُ له الآخرةُ، فيعلَمُ صِدْقَ القائلِ، فيبكي وينزعجُ على تفريطِهِ، ويعزِمُ على الاستدراكِ، ثم يتراخَى عملُهُ بمُقْتَضَى ما عَزَمَ عليه؛ فإذا قيلَ له: أتَشُكُّ فيما وُعِدْتَ به؟ قال: لا واللهِ. فيقالُ له: فاعْمَلْ! فينوي ذلك، ثم يتوقَّفُ عنِ العملِ، وربَّما مالَ إلى لَذَّةٍ محرَّمةٍ، وهو يعلَمُ النهيَ عنها!

ومِن هذا الجنسِ تأخُّرُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا، ولم يكنْ لهمْ عُذْرٌ، وهم يعلمونَ قُبْحَ التأخُّرِ، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرِّطٍ.

فتأملتُ السببَ، مع أنَّ الاعتقادَ صحيحٌ والفعلَ بطيءٌ؛ فإذا له ثلاثةُ أسبابٍ:

احدُها: رؤيةُ الهوى العاجلِ؛ فإنَّ رؤيتَهُ تَشْغَلُ عن الفكرِ فيما يَجْنيهِ.

والثاني: التسويفُ بالتوبةِ؛ فلو حَضَرَ العقلُ؛ لحذَّرَ من آفاتِ التأخيرِ؛ فربَّما هَجَمَ الموتُ ولم تحصُلِ التوبةُ! والعجبُ ممَّن يُجَوِّزُ سَلْبَ روحِهِ قبل مُضِيِّ ساعةٍ، ولا يعملُ على الحزمِ! غيرَ أنَّ الهوى يطيلُ الأمدَ.

وقد قالَ صاحبُ الشرع ﷺ: «صلِّ صلاةَ مودِّع»[١]، وهذا نهايةُ الدواءِ لهذا الداء؛ فإنَّه مَن ظَنَّ أنَّه لا يَبْقى إلى صلاةٍ أخرى؛ جَدَّ واجتهدَ.

والثالث: رجاءُ الرحمةِ، فيُرى العاصي يقولُ: ربي رحيمٌ! وينسى أنه شديدُ العقاب!! ولو عَلِمَ أنَّ رحمتَه ليستْ رِقَّةً - إذْ لو كانتْ كذلك؛ لما ذَبَحَ عُصفورًا ولا آلَمَ طِفْلاً - وعقابَهُ غيرُ مأمونٍ - فإنَّه شَرَعَ قَطْعَ اليدِ الشريفةِ[٢] بسَرِقَةِ خمسةِ قراريطَ -؛ لَجَدَّ وأنابَ.

فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يَهَبَ لنا حَزْمًا يَبُتُّ المصالحَ جَزْمًا.

ooooo

أيها الإنسانُ! هذه حقيقتكَ

عَجِبْتُ لِمَنْ يُعْجَبُ بصورتِهِ، ويختالُ في مِشْيَتِهِ، وينسَى مبدأَ أمرِه!

إنَّما أولُهُ لقمةٌ ضُمَّتْ إليها جُرعةُ ماءٍ. فإن شئتَ؛ فقلْ: كُسَيْرَةُ خبزٍ، معها تمراتٌ، وقطعةٌ من لحمٍ، ومَذْقَةٌ[٣] من لبنٍ، وجُرعةٌ من ماءٍ ونحوُ ذلك، طَبَخَتْهُ الكبدُ، فأخرجتْ منه قطراتِ مَنِيٍّ، فاستَقرَّ في الأنثيين[٤]، فحَرَّكَتْها الشهوةُ، فَصُبَّتْ، فبقيتْ في بطنِ الأمِّ مدةً حتى تكاملتْ صورتُها، فخرجتْ طفلًا، يَتَقَلَّبُ في خِرَقِ البولِ.

وأما آخرُهُ؛ فإنَّه يُلقى في الترابِ، فيأكُلُه الدودُ، ويصيرُ رُفاتًا[٥] تَسْفِيهِ السَّوافي[٦].

وكم يخرجُ ترابُ بدنِهِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ آخرَ، ويُقَلَّبُ في أحوالٍ، إلى أن يعودَ فيُجْمَعَ!

هذا خبرُ البدنِ.

إنَّما الرُّوحُ عليها العملُ: فإنْ تَجَوْهَرَتْ بالأدبِ، وتقوَّمَتْ بالعلمِ، وعرفتِ الصانعَ،

---

(١) أحمد (٢٢٩٨٧)؛ وابن ماجه (٤١٧١).

(٢) الشريفة: أي المصانة، ولكنها لـمّا خانت هانت، فقُطعت.

(٣) المذقة: بعض اللبن الممزوج بالماء.

(٤) الأنثيين: الخصيتين.

(٥) رفاتًا: حطامًا وفتاتًا.

(٦) تسفيه السوافي: تذرّه الرياح المحملة بالرمال والغبار.

وقامتْ بحقِّه؛ فما يَضُرُّها نَقْصُ الـمَرْكَبِ. وإن هي بَقِيَتْ على صِفَتِها من الجهالةِ؛ شابهتِ الطينَ، بل صارتْ إلى أخسِّ حالةٍ منهُ.

○○○○○

أخلِصْ لربِّك ولا تُرائي

عجبتُ لمن يتصنَّعُ للناسِ بالزُّهدِ، يرجو بذلك قربَه من قلوبِهم، ويَنْسَى أنَّ قلوبَهم بيدِ مَن يعملُ له؛ فإنْ رضي عَمَلَهُ ورآه خالصًا؛ لَفَتَ القلوبَ إليه، وإنْ لم يَرَهُ خالصًا؛ أعرضَ بها عنه.

ومتى نَظَرَ العاملُ إلى التفاتِ القلوبِ إليه؛ فقد زاحمَ الشِّركَ؛ لأنه ينبغي أن يَقْنَعَ بنظرِ مَن يعملُ له.

ومن ضرورةِ الإخلاصِ ألا يَقْصِدَ التفاتَ القلوبِ إليه؛ فذاك يحصُلُ لا بقصدِهِ، بل بكراهتِه لذلك.

وليعْلَم الإنسانُ أنَّ أعمالَه كلَّها يعلمُها الخَلْقُ جملةً، وإن لم يطَّلِعوا عليها؛ فالقلوبُ تشهدُ للصالحِ بالصَّلاحِ وإن لم يشاهَدْ منه ذلك.

فأمَّا مَن يَقْصِدُ رؤيةَ الخَلْقِ بعملِهِ؛ فقد مَضَى العملُ ضائعًا؛ لأنَّه غيرُ مقبول عندَ الخالقِ، ولا عندَ الخَلْقِ؛ لأنَّ قلوبَهم قد أُلْفِتَتْ عنه؛ فقد ضاعَ العلمُ، وذهبَ العُمُرُ!

فليتَّقِ اللهَ العبدُ، ويقصِدْ مَن يَنْفَعُهُ قصدُه، ولا يَتَشاغلْ بمدحِ مَنْ عن قليلٍ يَبْلَى هُوَ وَهمْ.

○○○○○

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

العجبُ ممَّن يقولُ: أخرُجُ إلى المقابرِ فأعتَبِرُ بأهل البِلى[1]!! ولو فَطِنَ؛ عَلِمَ أنَّه مقبرةٌ؛ يغنيهِ الاعتبارُ بما فيها عن غيرِها!

خصوصًا مَن قد أوغل في السنِّ؛ فإنَّ شهوتَه ضَعُفَتْ، وقُواه قَلَّتْ، والحواسُّ

(١) وما العجب في ذلك وقد قال ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة».

كَلَّتْ، والنشاطُ فَتَرَ، والشعرُ ابيَضَّ.

فليعتبرْ بما فَقَدَ، وليستغْنِ عن ذِكْرِ مَن فَقَدَ؛ فقدِ استغنى بما عندَه عن التطلُّعِ إلى غيرِه.

○○○○○

في ضرورةِ التثبتِ في الأمورِ والنظرِ في عواقِبِها

ما اعتمدَ أحدٌ أمرًا إذا همَّ بشيءٍ مثلَ التَّثبُّتِ؛ فإنَّه متى عَمِلَ بواقعةٍ من غيرِ تأمُّلٍ للعواقبِ؛ كان الغالبَ عليه النَّدَمُ، ولهذا أُمِرَ بالمشاورةِ؛ لأنَّ الإنسانَ بالتَّثبُّتِ يَفْتكِرُ، فَتَعْرِضُ على نفسِهِ الأحوالُ، وكأنَّه شاوَرَ، وقد قيل: خَميرُ الرأي خيرٌ من فَطيرِهِ[1].

وأشدُّ الناسِ تَفْريطًا مَن عَمِلَ مبادرةً في واقعةٍ، من غير تَثَبُّتٍ ولا استشارةٍ، خصوصًا فيما يوجِبُهُ الغضبُ؛ فإنَّه طلبَ الهلاكَ أو النَّدَمَ العظيمَ.

وكم مَن غَضِبَ، فَقَتَلَ، وضَرَبَ، ثم لما سَكَنَ غضبُهُ؛ بقي طولَ دهرِهِ في الحزنِ والبكاءِ والندمِ! والغالبُ في القاتلِ أنَّه يُقْتَلُ فتفوتُهُ الدُّنيا والآخرةُ.

فكذلك مَن عَرَضَتْ له شهوةٌ، فاستعجلَ لَذَّتَها، ونَسِيَ عاقبَتَها؛ فكم مِنْ نَدَمٍ يتجرَّعُهُ في باقي عُمُرِه، وعتابٍ يَسْتَقْبِلُهُ من بعدِ موتِهِ، وعقابٍ لا يؤمَنُ وقوعُهُ؛ كلُّ ذلك لِلَذةٍ لحظةٍ كانتْ كَبَرْقٍ.

فاللهَ اللهَ!! التثبُّتَ التثبتَ في كلِّ الأمورِ! والنظرَ في عواقبِها! خصوصًا الغضبَ المثيرَ للخصومةِ وتعجيلِ الطلاقِ.

○○○○○

وإن تعدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصُوها

بلغني عن بعضِ الكُرماءِ أنَّ رجلًا سألهُ، فقالَ: أنا الذي أحسنتَ إليَّ يومَ كذا وكذا. فقالَ: مرحبًا بمنْ يَتَوَسَّلُ إلينا بنا. ثم قَضَى حاجَتَهُ.

فأخذتُ من ذلك إشارةً، فناجيتُ بها، فقلتُ: أنت الذي هَدَيْتَهُ من زمنِ الطُّفولةِ، وحَفِظْتَهُ من الضَّلالِ، وعَصَمْتَهُ عن كثيرٍ من الذُّنوبِ، وألهمتَهُ طلبَ العلمِ، ولا بِفَهْمٍ

---

(١) أي الرأي الذي نتج عن روية وتؤدة خير من الرأي الذي نتج عن عجلةٍ وسرعة.

لشرفِهِ لموضعِ الصِّغَرِ، ولا بحبِّ والدِهِ، وَرَزَقْتَهُ فهمًا لتفقُّهِهِ وتصنيفِهِ، وهيأتَ له أسبابَ جمعِهِ، وقمتَ برزقِهِ من غيرِ تعبٍ منه ولا ذُلّ للخَلْقِ بالسؤالِ، وحامَيْتَ عنه الأعداءَ فلم يقصِدْهُ جبارٌ، وجمعتَ له ما لم تَجْمَعْ لأكثرِ الخلقِ من فنونِ العلمِ التي لا تكادُ تجتمعُ في شخصٍ، وأضفتَ إليها تَعَلُّقَ القلبِ بمعرفِتكَ ومحبَّتِكَ، وحسنَ العبارةِ ولُطْفَها في الدَّلالةِ عليك، ووضعتَ له في القلوبِ القبولَ، حتى إنَّ الخَلْقَ يُقْبِلُونَ عليه، ويَقْبَلونَ ما يقولُهُ، ولا يشكُّونَ فيه، ويشتاقونَ إلى كلامِهِ، ولا يدرِكُهُمُ المللُ منه، وصُنْتَهُ بالعُزْلةِ عن مخالطةِ مَن لا يَصْلُحُ، وآنسْتَهُ في خَلْوتِهِ بالعلمِ تارةً، وبمناجاتِك أخرى، وإن ذهبتُ أعدُّ؛ لم أُقدِرْ على إحصاءِ عُشَيْرِ العُشَيْرِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فيا محسنًا إليَّ قبلَ أن أطلُبَ! لا تُخَيِّبْ أملي فيكَ وأنا أطْلُبُ؛ فبإنعامِكَ المتقدِّمِ أتوسَّلُ إليكَ.

○○○○○

من قَصَصِ البُخَلاءِ

سبحانَ مَن جَعَلَ الخَلْقَ بينَ طَرَفَيْ نقيضٍ، والمتوسِّطُ منهم يَنْدُرُ!

فالـمُنْفِقُ كلَّ ما يَجِدُ مبذِّرٌ، والبخيلُ يخبِّىءُ المالَ ويمنعُ نفسَه حَظَّها.

ومن الناسِ مَن يَبْخَلُ، ثم يتفاوتونَ في البخلِ، حتى ينتهيَ البلاءُ بهم إلى عِشْقِ عينِ المالِ؛ فربَّما ماتَ أحدُهُم هُزالًا وهو لا يُنْفِقُهُ، فيأخُذُهُ الغيرُ، ويندَمُ الـمُخَلِّفُ!!

ولقد بلغني في هذا ما ليس فوقَه مزيدٌ، ذكرتُهُ لتعتبرَ به:

فحدّثني شيخُنا أبو الفضلِ بنُ ناصرٍ عن شيخِهِ عبدِ المحسنِ الصُّوريِّ؛ قالَ: كان بصورٍ تاجرٌ في غرفةٍ له، يأخُذُ كلَّ ليلةٍ من البقَّال رغيفينِ وَجَوْزَةً، فيدخُلُ إلى غرفتِهِ وقتَ المغربِ، فيُضْرِمُ النارَ في الجَوْزةِ، فتضيءُ بمقدارِ ما ينزِعُ ثوبَه، وفي زمانِ إحراقِ القشرِ تكونُ قدِ استوتْ، فيمسَحُ بها الرغيفينِ ويأكُلُهما... فبقي على هذا مدةً، فماتَ، فأَخَذَ منه مَلِكُ صورٍ ثلاثينَ ألفًا!!

وحكى لي صديقٌ لنا: أنَّ رجلًا ماتَ ودُفِنَ في الدارِ، ثم نُبِشَ بعد مدةٍ لِيُخْرَجَ،

فوُجِدَ تحت رأسِهِ لَبِنَةٌ مُقَيَّرةٌ[١]، فَسُئِلَ أهلُه عنها؟ فقالوا: هو قَيَّرَ هذه اللبنةَ وأوصى أن تُتْرَكَ تحتَ رأسِهِ في قبرِهِ وقالَ: إن اللَّبِنَ يَبْلَى سريعًا، وهذه لموضع القارِ لا تبلَى. فأخذوها، فوجَدوها رَزِينةً[٢]، فكَسَروها، فوجَدوا فيها تسعَ مائةِ دينارٍ، فتولَّاها أصحابُ التَّرِكاتِ!!

وبلغني أنَّ رجلًا كان يَكْنُسُ المساجدَ، ويجمعُ ترابَها، ثم ضَرَبَه لَبِنًا، فقيلَ له: هذا لأيِّ شيءٍ؟ فقال: هذا ترابٌ مباركٌ، وأريدُ أن يجعلوهُ على لَـحْدِي: فلما ماتَ؛ جُعِلَ على لحدِهِ، فَفَضَلَ منه لَبِناتٌ، فرَمَوْها في البيتِ، فجاء المطرُ، فتفسَّخَتِ اللبناتُ؛ فإذا فيها دنانيرُ، فمَضَوا، وكَشَفَوا اللَّبِنَ عن لحدِهِ، وكلُّه مملوءٌ دنانيرَ!!

فسبحانَ من أعدمَ هؤلاءِ العقولَ والفُهومَ!

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

○○○○○

تواضعُ العلماءِ

إذا تَمَّ علمُ الإنسانِ؛ لم يَرَ لنفسِهِ عملًا، وإنما يرى إنعامَ الموفِّقِ لذلك العملِ، والذي يمنعُ العاقلَ أن يرى لنفسِهِ عَمَلًا أو يُعْجَبَ به أشياء:

* منها: أنَّه وَفَّقَ لذلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].
* ومنها: أنَّه إذا قِيسَ بالنِّعم؛ لم يَفِ بمعشارِ عشرِها.
* ومنها: أنه إذا لوحِظَتْ عَظَمَةُ المخدوم؛ احتَقَرَ كلَّ عملٍ وتَعَبُّدٍ.

هذا إذا سَلِمَ من شائبةٍ وخَلَصَ من غفلةٍ.

فأما والغفلاتُ تحيطُ به؛ فينبغي أن يَغْلِبَ الحَذَرُ من ردِّه، ويَخافَ العتابَ على التقصيرِ فيه، فيَشْتَغِلَ عن النظرِ إليه.

وتأمَّلْ على الفُطَناءِ أحوالَهم في ذلك:

* فالملائكةُ الذين يسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفتُرونَ قالوا: ما عبدناكَ حقَّ عبادَتِكَ.

---

(١) مقيرة: مطلية بالقار.

(٢) رزينة: ثقيلة.

* والخليلُ عليه السلامُ يقولُ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدَلَّ بتصبُّرِهِ على النارِ وتسليمِهِ الولدَ إلى الذَّبح.

* ورسولُ الله ﷺ يقولُ: «ما منكم مَن يُنجيهِ عملُهُ». قالوا: ولا أنتَ؟ قال: «ولا أنا؛ إلَّا أن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برحمتِهِ»(١).

* وأبو بكرٍ رضي الله عنه يقولُ: وهل أنا ومالي إلَّا لك يا رسولَ الله؟!

* وعمرُ رضي الله عنه يقولُ: لو أنَّ لي طِلاعَ الأرضِ؛ لافتديتُ بها مِن هَوْلِ ما أمامي قبل أن أعلمَ ما الخبرُ.

* وابنُ مسعودٍ يقولُ: ليتني إذا مِتُّ لا أُبْعَثُ.

* وعائشةُ رضي الله عنها تقولُ: ليتني كنتُ نسيًا مَنْسِيًّا.

وهذا شأنُ جميعِ العقلاءِ؛ فرضي اللهُ عنِ الجميعِ.

○○○○○

وعاشروهنَّ بالمعروفِ

شَكَا لي رجلٌ مِن بُغْضِهِ لزوجتِهِ، ثم قالَ: ما أقدِرُ على فراقِها؛ لأمورٍ؛ منها: كَثْرَةُ دَيْنِها عليَّ وصبري قليلٌ، ولا أكادُ أسلمُ مِن فَلَتات لِساني في الشَّكْوى، وفي كلماتٍ تُعْلِمُ بُغْضي لها.

فقلتُ له: هذا لا يَنْفَعُ، وإنَّما تُؤتَى البيوتُ مِن أبوابِها!

فينبغي أنْ تَخْلُوَ بنفسِك، فتعلمَ أنَّها إنَّما سُلِّطَتْ عليكَ بذُنوبِكَ، فتبالغَ في الاعتذارِ والتوبةِ.

فأمَّا التضجُّرُ والأذَى لها؛ فما يَنْفَعُ؛ كما قالَ الحسنُ بنُ الحجَّاجِ: عقوبةٌ مِن الله لكم؛ فلا تُقابِلوا عقوبَتَهُ بالسيفِ، وقابِلوها بالاستغفارِ.

واعلمْ أنَّك في مقامِ مُبْتَلًى، ولك أجرٌ بالصَّبْرِ، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١٦]!

فعامِلِ اللهَ سبحانَه بالصبرِ على ما قَضَى، واسألْهُ الفَرَجَ؛ فإذا جمعتَ بينَ الاستغفارِ وبينَ التوبةِ من الذُّنوبِ والصبرِ على القضاءِ وسؤالِ الفَرَجِ؛ حَصَّلْتَ ثلاثةَ فنونٍ مِن

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)؛ ومسلم (٢٨١٦).

العبادةِ، تُثابُ على كلٍّ منها.

ولا تُضيِّعِ الزمانَ بشيءٍ لا يَنْفَعُ، ولا تَحْتَلْ ظانًّا منكَ أنَّك تدفعُ ما قُدِّرَ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

وأمّا أذاكَ للمرأةِ؛ فلا وجه له؛ لأنَّها مُسَلَّطَةٌ؛ فليكنْ شُغْلُكَ بغيرِ هذا.

وقد رُوِيَ عن بعضِ السَّلَفِ أنَّ رجلًا شَتَمَهُ، فَوَضَعَ خدَّه على الأرضِ، وقالَ: اللهمَّ! اغفرْ لِيَ الذنبَ الذي سَلَّطْتَ هذا بِهِ عليَّ.

قالَ الرجلُ: وهذه المرأةُ تُحِبُّني زائدًا في الحدِّ، وتبالغُ في خِدمتي؛ غيرَ أنَّ البغضَ لها مركوزٌ في طَبْعي.

قلتُ له: فعامِلِ اللهَ سبحانَه بالصبرِ عليها؛ فإنَّك تُثابُ.

وقد قيلَ لأبي عثمانَ النَّيْسابوريِّ: ما أرجى عَمَلِكَ عندَك؟ قال: كنتُ في صَبْوَتي يجتهدُ أهلي أن أتزوَّجَ، فآبي، فجاءتْني امرأةٌ، فقالتْ: يا أبا عثمانَ! إني قد هَوِيتُكَ، وأنا أسألُكَ باللهِ أن تَتَزَوَّجَني. فأحضرتُ أباها – وكانَ فقيرًا –، فزوَّجَني، وفَرِحَ بذلك. فلمّا دَخَلَتْ إليَّ؛ رأيْتُها عوراءَ عوجاءَ مُشَوَّهةً، وكانتْ لمحبَّتِها لي تمنعُني مِن الخُروجِ، فأقعُدُ حِفْظًا لِقَلْبِها، ولا أُظْهِرُ لها من البُغْضِ شيئًا، وكأني على جَمْرِ الغَضا[1] من بُغْضِها.. فبقيتُ هكذا خمسَ عشرةَ سنةً حتى ماتتْ؛ فما مِن عملي شيءٌ هو أرجى عِنْدِي من حِفْظِي قَلْبَها.

قلتُ له: فهذا عَمَلُ الرجالِ! وأيُّ شيءٍ ينفعُ ضجيجُ المبتلَى بالتضجُّرِ بإظهارِ البُغْضِ؟! وإنما طريقُه ما ذكرتُه لك؛ من التوبةِ، والصبرِ، وسؤال الفَرَجِ.

وَتَذَكَّرْ ذُنوبًا كانتْ هذه عقوبَتَها؛ فإنْ وَقَعَ فَرَجٌ في الحسابِ، وإلّا فاستعمالُ الصبرِ على القضاءِ عبادةٌ.

وتَكَلَّفْ إظهارَ المَوَدَّةِ لها، وإن لم تكنْ في قلبِكَ تُثَبْ على هذا.

وليس للقيدِ ذنبٌ فيُلامُ، إنَّما ينبغي التشاغلُ معَ من قَيَّده.

والسلامُ.

○○○○○

---

(١) جمر الغضا: الغضا: شجر من الأثل صلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفئ.

لا تسبّوا الدهْرَ

ما رأتْ عيني مصيبةً نزلتْ بالخَلْقِ أعظمَ من سَبِّهم للزَّمانِ وعَيْبِهِم للدَّهْرِ.

وقد كان هذا في الجاهليةِ، ثم نهى رسولُ الله ﷺ عن ذلك فقال: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فإنَّ اللهَ هوَ الدَّهرُ»[1]، ومعناهُ: أنتُم تَسُبُّونَ مَن فَرَّقَ شَمْلَكُم وأماتَ أهالِيَكُمْ، وتنسِبُونَه إلى الدهرِ، واللهُ تعالى هو الفاعلُ لذلك.

فتعجبتُ؛ كيف أُعلِمُ أهلَ الأسقام بهذه الحالِ، وهم على ما كان أهلُ الجاهليةِ عليه ما يتغيَّرونَ؟! حتَّى ربَّما اجتمعَ الفُطَناءُ الأدباءُ الظِّرافُ – على زعمِهم –، فلم يكنْ لهم شغلٌ إلَّا ذَمَّ الدَّهْرِ! وربَّما جَعَلوا اللهَ الدُّنيا، ويقولون: فَعَلَتْ وصَنَعَتْ!! وحتَّى رأيتُ لأبي قاسمِ الحريريِّ يقولُ:

ولَـمَّا تَعامى الدَّهْرُ وَهْوَ أبو الرَّدَى   عَـنِ الـرُّشْـدِ فـي أنحائِهِ ومقاصِدَهُ
تعـامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إنِّي أخو عَمًى   ولا غَرْوَ أنْ يَحْذوا الفَتَى حَذْوَ والِدِهِ

ooooo

التورعُ عن الشبهاتِ

مَن رُزِقَ قلبًا طيِّبًا ولَذَّةَ مناجاةٍ؛ فليراجِعْ حالَه، ولْيَحْتَرِزْ من التغييرِ!

وإنَّما تدومُ له حالُه بدوام التَّقوى.

وكنتُ قد رُزِقْتُ لبًّا طيِّبًا ومناجاةَ خَلْوَةٍ، فأحضرني بعضُ أربابِ المناصبِ إلى طعامِه، فما أمكنَ خلافُهُ، فتناولتُ وأكلتُ منه، فلَقيتُ الشدائدَ، ورأيتُ العقوبةَ في الحالِ، واستمرَّتْ مُدَّةً، وغُصِبْتُ على قلبي، وفقدتُ كلَّ ما كنتُ أجِدُه.

فقلتُ: واعجبًا! لقد كُنْتُ في هذا كالـمُكْرَهِ!

فتفكَّرْتُ، وإذا به قد يمكنُ مداراةُ الأمرِ بلُقَيْماتٍ يسيرةٍ، وإنَّما التأويلُ جَعَلَ تناولَ هذا الطعامَ بشهوةٍ أكثرَ مما يُدْفَعُ بالمداراةِ.

فقالتِ النفسُ: ومِن أينَ لي أنَّ عينَ هذا الطعامِ حرامٌ؟!

---

(١) مسلم (٢٢٤٦).

فقالتِ اليَقَظَةُ: وأينَ الورعُ عن الشُّبهاتِ؟!

فلـمَّا تناولْتُ بالتأويلِ لُقمةً، واستجلبتُها بالطَّبعِ؛ لقيتُ الأمَرَّيْنِ بفقدِ القلبِ؛ فاعْتَبِروا يا أولي الأبصارِ!

○○○○○

المؤمنُ لا يَغْفُلُ عن الآخرةِ

هِمَّةُ المؤمنِ متعلقةٌ بالآخرةِ؛ فكلُّ ما في الدُّنيا يُحَرِّكُهُ إلى ذِكْرِ الآخرةِ، وكلُّ مَن شَغَلَهُ شيءٌ؛ فهِمَّتُهُ شغلُه.

ألا ترى أنَّه لو دَخَلَ أربابُ الصنائعِ إلى دارٍ معمورةٍ؛ رأيتَ البَزَّازَ يَنْظُرُ إلى الفُرُشِ، ويحزِرُ قيمتَه، والنَّجّارَ إلى السَّقْفِ، والبنَّاءَ إلى الحيطانِ، والحائكَ إلى النسيجِ المَخيطِ.

والمؤمنُ إذا رأى ظُلمةً؛ ذَكَرَ ظُلمةَ القبرِ، وإن رأى مُؤْلِـمًا؛ ذَكَرَ العقابَ، وإن سَمِعَ صوتًا فظيعًا؛ ذَكَرَ نفخةَ الصُّورِ، وإنْ رأى الناسَ نيامًا؛ ذَكَرَ الموتى في القبورِ، وإن رأى لَذَّةً؛ ذَكَرَ الجنةَ؛ فَهِمَّتُهُ متعلِّقةٌ بما ثَمَّ، وذلك يشغَلُهُ عن كلِّ ما تَمَّ.

وأعظمُ ما عندَه أنَّه يتخايلُ دوامَ البقاءِ في الجنةِ، وأنَّ بقاءَه لا ينقَطِعُ ولا يزالُ ولا يعتريهِ منغِّصٌ، فيكادُ إذا تخايَلَ نفسَه متقلِّبًا في تلك اللَّذَّاتِ الدائمةِ التي لا تفْنَى يطيشُ فَرَحًا، ويسهُلُ عليه ما في الطريقِ إليها؛ من ألمٍ، ومرضٍ، وابتلاءٍ، وفقدِ محبوبٍ، وهُجومِ الموتِ، ومعالجةِ غُصَصِهِ، ثم يَتَخايلُ المؤمنُ دخولَ النارِ والعقوبةَ، فيتنغَّصُ عيشُه ويَقْوَى قلقُه فعندَه بالحالينِ شُغْلٌ عن الدُّنيا وما فيها، فقلبُهُ هائمٌ في بيداءِ الشَّوْقِ تارةً وفي صحراءِ الخوفِ أُخرى؛ فما يَرى البنيانَ.

فإذا نازَلَهُ الموتُ قَوِيَ ظنُّه بالسَّلامةِ، ورجَا لنفسِه النجاةَ، فيهونُ عليه.

فإذا نَزَلَ إلى القبرِ، وجاءَه مَن يسألونَه؛ قالَ بعضُهم لبعضٍ: دَعوهُ؛ فما استراحَ إلَّا الساعةَ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقَظَةً تامَّةً؛ تحرِّكُنا إلى طلبِ الفضائلِ، وتمنعُنا من اختيارِ الرَّذائلِ؛ فإنَّه إنْ وَفَّقَ، وإلَّا فلا نافعَ.

افهمْ مُرادَ ربِّك

واعجبًا من موجودٍ لا يفهمُ معنَى الوجودِ؛ فإن فَهِمَ؛ لم يعملْ بمقتضى فهمِهِ!!

يعلمُ أنَّ العُمُرَ قصيرٌ، وهو يضيِّعُهُ بالنومِ والبَطَالةِ والحديثِ الفارغِ وطلبِ اللَّذَّاتِ، وإنَّما أيامُه أيامُ عملٍ لا زمانُ فراغ.

وقد كُلِّفَ بَذْلَ المالِ بمخالفةِ الطَّبعِ من الشَّرْعِ، فَبَخِلَ به، إلى أن يَتَضَايقَ الخِناقُ، فيقولَ حينئذٍ: فَرِّقوا عنِّي بعدَ موتي! وافعلوا كذا! فأين يقعُ هذا لو فُعِلَ؟! وبعيدٌ أن يُفْعَلَ، وإنما يُرادُ بإنفاقِكَ في صحَّتِكَ مخالفةُ الطبعِ في تكلُّفِ مشاقِّ الإخراجِ في زمنِ السَّلامةِ؛ فافرُقْ بين الحالتينِ إن كانَ لك فهمٌ!

فالسعيدُ من انتبهَ لنفسِهِ، وعَمِلَ بمقتضى عقلِهِ، واغتنمَ زمنًا نهايتُهُ الزَّمَنُ[(١)]، وانتهبَ عُمُرًا يا قربَ انقطاعِهِ!

ويحكَ! لو ابتلاكَ في مالِكَ، فقلَّ؛ لاسْتَغثْتَ، أو في بدنِكَ ليلةً بمرضٍ؛ لشَكَوْتَ؛ فأنتَ تَسْتوفي مطلوباتِكَ منهُ، ولا تستوفي حقَّه عليكَ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]!.

فسبحانَ مَنْ مَنَّ على أقوامٍ فَهِموا المرادَ فأتْعبوا الأجسادَ، وغطَّى على قلوبِ آخرينَ فوجودُهم كالعَدَم.

وكيفَ لا يُتْعِبُ العاقلُ بدنَه إتعابَ البُدْنِ والمقصودُ مِنِّي؟!

فَوَا خيبةَ مَنْ جَهِلَهُ! وا فَقْرَ مَنْ أعرضَ عنه! وا ذُلَّ من اعتزَّ بغيرِهِ! وا حسرةَ مَنِ اشتَغَلَ بغيرِ خِدمتِهِ!

ooooo

---

(١) الزمن: العاهة والمرض وقد مرَّ.

لا تغتر بالظواهر

لا يَغُرَّكَ من الرجلِ طَنْطَنَتُهُ(١) وما تراهُ يفعلُ من صلاةٍ وصومٍ وصدقةٍ وعُزلةٍ! إنَّما الرجلُ هو الذي يراعي شيئين: حِفْظَ الحُدودِ، وإخلاصَ العمَلِ.

فكم قد رأينا متعبِّدًا يَخْرِقُ الحدودَ بالغِيبةِ وفعلِ ما لا يجوزُ مما يوافقُ هواه!

وكم قدِ اعتبرْنَا على صاحبِ دينٍ أنَّه يَقْصِدُ بفعلِهِ غيرَ الله تعالى!

وهذه الآفة تزيدُ وتَنْقُصُ في الخلقِ.

فالرجلُ كلُّ الرجل هو الذي يراعي حدودَ الله، وهي ما فُرِضَ عليه وأُلزِمَ به، ولا يتعدَّاها إلى هواهُ، ويُحْسِنُ القصدَ، فيكونُ عملُه وقولُه خالصًا لله تعالى، لا يريدُ به الخلقَ ولا تعظيمَهم له.

فربَّ خاشعٍ ليقالَ: ناسكٌ! وصامتٍ ليقالَ: خائفٌ! وتاركٍ للدُّنيا لِيُقالَ: زاهدٌ!

وعلامةُ المخْلِصِ أن يكونَ في جَلْوتِهِ كخَلْوتِهِ، وربَّما تكلَّفَ بين الناسِ التبسُّمَ والانبساطَ لِـيَنْمحِيَ عنه اسمُ الزاهدِ؛ فقد كانَ ابنُ سيرينَ يَضْحَكُ بالنهارِ؛ فإذا جَنَّ الليلُ؛ فكأنه قَتَلَ أهلَ القريةِ.

فالموفَّقَ من كانت معاملتُهُ باطنةً وأعمالُهُ خالصةً، وذاك الذي تحبُّه الناسُ وإنْ لـمْ يُبالِهم؛ كما يمقُتونَ المرائيَ وإنْ زادَ تعبُّدُه.

ثم إنَّ الرجلَ الموصوفَ بهذه الخصالِ لا يَتَنَاهى عن كمالِ العلومِ، ولا يُقَصِّرُ عن طَلَبِ الفضائلِ؛ فَمَلأَ الزمانَ أكثرَ ما يسعُهُ من الخيرِ، وقلبُهُ لا يفتُرُ عن العملِ القلبيِّ(٢)، إلى أن يصيرَ شُغْلُهُ بالحقِّ سبحانَه وتعالى.

○○○○○

---

(١) طنطنته: كثرة كلامه وصياحه.

(٢) العمل القلبي: كالإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبة وغير ذلك.

الخيرُ عندَ العُقلاءِ

إذا رأيتَ قليلَ العقل في أصْلِ الوَضْعِ؛ فلا تَرْجُ خيرَهُ!

فأمَّا إنْ كانَ وافرَ العقلِ، لكنَّه يَغْلِبُ عليه الهوى؛ فارْجُه!

وعلامةُ ذلك أنَّه يدبِّرُ أمرَهُ في جهلِهِ؛ فَيَسْتَتِرُ من الناس إذا أتَى فاحشةً، ويراقِبُ في بعضِ الأحوالِ، ويبكي عندَ الموعظةِ، ويحترِمُ أهلَ الدِّينِ، فهذا عاقلٌ مغلوبٌ بالهوى؛ فإذا انْتبَهَ بالندمِ؛ خَنَسَ(١) شيطانُ الهوى، وجاءَ مَلَكُ العقلِ.

فأمَّا إذا كان قليلَ العقلِ في الوضْعِ – وعلامتُه أنْ لا يَنْظُرَ في عاقبةٍ عاجلةٍ ولا آجلةٍ، ولا يستحيَ من الناسِ أن يَرَوْهُ على فاحشةٍ، ولا يُدَبِّرَ أمرَ دُنياه–؛ فذاك بعيدُ الرَّجاءِ، وقد يَنْدُرُ من هؤلاءِ مَنْ يُفْلحُ.

○○○○○

لا يغرنَّك بريقُ الدنيا

ما رأيتُ أظرفَ من لَعِبِ الدُّنيا بالعقول!

وقد سمعْنا ورأيْنا جماعةً من الفُطَناءِ الكاملي العقلِ، لعبتْ بهمُ الدُّنيا حتى صاروا كالمجانينِ، فَوَلُوا الولاياتِ، فَخَرَجوا إلى القتلِ والضَّرْبِ والحبسِ والشَّتْمِ وذَهابِ الدِّينِ والمباشرةِ للظُّلم، كلُّه لأجل دُنيا تذهبُ سريعًا، وهي في مدةِ إقامتِها معجونةٌ بالنَّغصِ.

فيا أيُّها المرزوقُ عقلًا! لا تبخَسْهُ حقَّه، ولا تطفِئْ نورَه، واسمعْ ما نشيرُ بِهِ، ولا تلتفتْ إلى بكاءِ طفلِ الطبعِ لفواتِ غَرَضِهِ؛ فإنَّك إن رحمتَ بكاءَه؛ لم تقْدِرْ على فِطَامِهِ، ولـم يمكنْكَ تأديبُه، فيبلغُ جاهلًا فقيرًا:

لا تَسَهُ عن أدبِ الصَّغـ ـيرِ وَلَوْ شَكا أَلَمَ التَّعَبْ
وَدَعِ الكَبيـرَ لِشَـأنِـهِ كَبُـرَ الكَبِيرُ عَنِ الأدَبْ

واعلمْ أنَّ زمانَ الابتلاءِ ضَيفٌ قِراهُ(٢) الصبرُ؛ كما قالَ أحمدُ بنُ حنبل: إنَّما هُو

---

(١) خنس: تأخر ورجع.

(٢) قراه: القِرَى ما يقدّم للضيف من طعام ونحوه.

طعامٌ دونَ طعامٍ، ولِباسٌ دونَ لباسٍ، وإنَّما أيامٌ قلائلُ؛ فلا تَنْظُرْ إلى لَذَّةِ المترفينَ، وتَلَمَّحْ عواقِبَهم، ولا تَضِقْ صدرًا بضيقِ المعاشِ، وعلِّل[1] الناقَةَ بالحَدْوِ[2] تَسِرْ.

وقد كانَ أُهدِيَ إلى أحمدَ بن حنبل هديةٌ، فردَّها، ثم قالَ بعدَ سنةٍ لأولادِه: لو كُنَّا قَبِلْناها؛ كانتْ ذَهَبَتْ.

وَدَخلوا إلى بشرِ الحافي، وليسَ في دارِهِ حَصيرٌ، فقيلَ له: ألا بذا تؤذَى؟ فقالَ: هذا أمرٌ ينقَضِي.

فهؤلاءِ الذين نَظَروا في عواقبِ الأمورِ.

ومَن صَفا نَظَرُهُ وتهذَّبَ لفظُهُ؛ نَفَعَ وَعْظُهُ، ومَن كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عليه.

والحالةُ العاليةُ في هذا: إقبالُ القلبِ على الله عزَّ وجلَّ، والتوكُّلُ عليه، والنظرُ إليه، والتفاتُ القلبِ عن الخلقِ؛ فإنِ احتَجْتَ؛ فاسألْه، وإنْ ضَعُفْتَ؛ فارغبْ إليه.

ومتى ساكنتَ الأسبابَ؛ انقطعتَ عنه، ومتى استقامَ باطِنُك؛ استقامتْ لك الأمورُ.

○○○○○

عليك بمطالعةِ سيرِ السلفِ

كانت هِمَمُ القدماءِ من العلماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمارهم؛ إلَّا أنَّ أكثرَ تصانيفِهم دَثَرَتْ؛ لأنَّ هِمَمَ الطُّلابِ ضَعُفَتْ، فصاروا يطلبُونَ المختصراتِ، ولا يَنْشَطُونَ للمطوَّلاتِ، ثم اقتصَروا على ما يدرُسونَ به من بعضِها، فَدَثَرَتِ الكتبُ، ولم تُنْسَخْ!

فسبيلُ طالبِ الكمالِ في طَلَبِ العلمِ الاطِّلاعُ على الكتبِ التي قد تخلَّفَتْ من المصنَّفاتِ؛ فَلْيُكْثِرْ من المطالعةِ؛ فإنَّه يرى من علومِ القومِ وعلوِّ هِمَمِهم ما يَشْحَذُ خاطِرَهُ ويحرِّكُ عزيمتَه للجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذ بالله من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشِرُهم! لا نرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فَيَقْتَدِيَ بها المبتدئُ، ولا صاحبَ ورعٍ فيستفيدَ منه الزاهدُ.

---

(١) علّل: أشغل.

(٢) الحدو: الحداء وهو الإنشاء للإبل.

فاللهَ اللهَ! وعليكُم بملاحظةِ سِيَرِ السَّلفِ ومطالعةِ تصانيفِهم وأخبارِهم؛ فالاستكثارُ من مطالعةِ كُتُبِهم رؤيةٌ لهم؛ كما قالَ[١]:

فاتَني أنْ أرى الدِّيـارَ بِطَرْفي فَلَعَلِّي أرى الدِّيـارَ بِسَمْعِي

وإني أخبِرُ عن حالي: ما أشبعُ من مطالعةِ الكُتُب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره؛ فكأني وقعتُ على كَنْزٍ، ولقد نظرتُ في ثَبَتِ[٢] الكتبِ الموقوفةِ في المدرسةِ النظاميَّةِ؛ فإذا به يحتوي على نحوِ ستةِ آلافِ مجلَّدٍ، وفي ثَبَتَ كتبِ أبي حنيفةَ وكتب الحُمَيْدِيِّ وكتب شيخِنا عبد الوهَّابِ بنِ ناصرٍ وكتبِ أبي محمدِ بنِ الخشَّابِ وكانت أحمالًا... وغيرِ ذلك من كلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلَّدٍ؛ كانَ أكثرَ، وأنا بعدُ في الطلبِ! فاستفدتُ بالنظرِ فيها من ملاحظةِ سِيَرِ القومِ وقَدْرِ هِمَمِهم وحِفْظِهم وعباداتِهم وغرائبِ علومِهم ما لا يعرِفُه مَن لم يطالِعْ، فصرتُ أستَزْرِي ما الناسُ فيه وأحتقِرُ هِمَمَ الطلابِ. ولله الحمدُ.

○○○○○

لماذا تهلكُ نفسَك؟

ليس للآدميِّ أعزُّ من نفسِه، وقد عجبتُ ممَّن يخاطِرُ بها ويعرِّضُها للهلاكِ! والسببُ في ذلك قِلَّةُ العقلِ وسوءُ النَّظَرِ!!

فمنهم مَن يعرِّضُها للتلَفِ لِيُمْدَحَ بزعمِهِ؛ مثلُ قوم يخرُجون إلى قتلِ السَّبُعِ! ومنهم من يَصْعَدُ إلى إيوانِ كِسْرى؛ لِيُقالَ: شاطرٌ[٣]! وساعٍ يمشي ثلاثينَ فرسخًا! وهؤلاءِ إذا تَلِفوا؛ حُمِلوا إلى النارِ؛ فإنْ هَلَكَ؛ ذهبتِ النفسُ التي يُرادُ المالُ لأجلِها.

وأعجبُ من الكلِّ مَن يخاطِرُ بنفسِهِ في الهلاكِ ولا يدرِي؛ مثلُ أن يَغْضَبَ فيقتلَ المسلمَ فَيَشْفيَ غيظَه بالتعذيبِ في جهنَّمَ.

وأظرفُ من هذا اليهودُ والنَّصارى؛ فإنَّ أحدَهم يبلُغُ، فيجِبُ عليه أن يَنْظُرَ في

---

(١) الشريف الرضي، والبيت في ديوانه (١/ ٥٠٠).

(٢) ثبت: فهرس.

(٣) الشاطر: هنا بمعنى السابق المسرع. وتجيء بمعنى الخبيث الفاجر.

نبوَّةِ نبيِّنا ﷺ؛ فإذا فرَّطَ فماتَ؛ فله الخلودُ في جهنَّمَ.

وأعجبُ من الكلِّ جاحدُ الخالقِ، وهو يـرَى إحكامَ الصَّنْعَةِ، ويقولُ: لا صانعَ!!

والسببُ في هذه الأشياءِ كلِّها قِلَّةُ العقْلِ وتركُ إعمالِهِ في النظرِ والاستدلالِ.

○○○○○

لا تخالطْ حسودًا

العزلةُ عن الخَلْقِ سببُ طِيبِ العَيْشِ، ولا بدَّ مِن مخالطةٍ بمقدارٍ.

فدارِ العدوَّ واسْتَمِلْه؛ فربما كادَكَ فأهلكَكَ!

وأحسنْ إلى مَنْ أساءَ إليك! واستعنْ على أمورِك بالكتمانِ!

فإن أردتَ العيشَ؛ فابعُدْ عن الحسُودِ؛ لأنه يرى نعمتَكَ؛ فربَّما أصابَها بالعينِ!

فإن اضطُرِرْتَ إلى مخالطتِهِ؛ فلا تُفْشِ له سِرَّك ولا تشاوِرْه، ولا يَغُرَّنَّكَ تملُّقُه لك ولا ما يُظْهِرُه من الدينِ والتعبُّدِ؛ فإنَّ الحسدَ يغلِبُ الدِّينَ! وقد عرفتَ أنَّ قابيلَ أخرجَه الحسدُ إلى القتلِ! وأنَّ إخوةَ يوسُفَ باعوه بثمنٍ بَخْسٍ! وكان أبو عامرٍ الراهبُ من المتعبِّدينَ العقلاءِ، وعبدُ الله بنُ أُبيٍّ من الرؤساءِ؛ أخرجَهُما حسدُ رسولِ الله ﷺ إلى النفاقِ وتَرْكِ الصوابِ.

ولا ينبغي أن تَطْلُبَ لحاسِدِك عقوبةً أكثرَ ممَّا هو فيه؛ فإنَّه في أمرٍ عظيمٍ متَّصلٍ، لا يُرضيه إلَّا زوالُ نعمتِكَ، وكلَّما امتدَّتْ؛ امتدَّ عذابُه؛ فلا عيشَ له!

وما طابَ عيشُ أهلِ الجنةِ إلَّا حين نُزِعَ الحسدُ والغِلُّ من صُدورِهم، ولولا أنَّه نُزِعَ؛ تحاسَدوا وتَنَغَّصَ عيشُهم.

○○○○○

أطيبُ العيشِ

ينبغي أن يكونَ العملُ كلُّه للهِ ومعهُ ومن أجلِهِ؛ وقد كفاكَ كلَّ مخلوقٍ، وجَلَبَ لك كلَّ خيرٍ.

وإياك أن تميلَ عنه بموافَقَةِ هوًى وإرضاءِ مخلوقٍ؛ فإنَّه يَعْكِسُ عليك الحالَ، ويُفَوِّتُكَ المقصودَ، وفي الحديث: «**مَنْ أرضى الناسَ بِسَخَطِ اللهِ؛ عادَ حامِدُهُ من الناسِ ذامًّا**»[(١)].

---

(١) مسند الشهاب (١/ ٢٩٩) بنحوه.

وأطيبُ العيشِ عيشُ مَن يعيشُ مع الخالقِ سبحانَه.

فإنْ قيلَ: كيف يعيشُ معهُ؟

قلتُ: بامتثالِ أمرِه، واجتنابِ نهيِه، ومراعاةِ حدودِه، والرِّضى بقضائِه، وحسنِ الأدبِ في الخَلْوَةِ، وكَثْرَةِ ذِكْرِه، وسلامةِ القلبِ من الاعتراضِ في أقدارِه؛ فإنْ احتجتَ؛ سألتَهُ؛ فإنْ أعْطَى، وإلّا رضيتَ بالمَنْعِ، وعلمتَ أنَّه لـمْ يَمْنَعْ بُخلًا، وإنما نَظَرًا لك، ولا تَنْقَطِعْ عن السؤالِ؛ لأنَّك تتعبَّدُ به، ومتى دُمْتَ على ذلك؛ رَزَقَكَ محبَّتَهُ وصِدْقَ التوكُّل عليه، فصارتِ المحبةُ تدلُّك على المقصودِ، وأثمرتْ لك محبَّتَهُ إياك؛ فحينئذٍ تعيشُ عَيْشَ الصديقينَ. ولا خيرَ في عيشٍ إنْ لم يكنْ كذا، فإنَّ أكثرَ الناس مُخبِّطٌ في عيشِهِ، يداري الأسبابَ، ويميلُ إليها بقلبِهِ، ويتعبُ في تحصيلِ الرزقِ بِحِرْصٍ زائدٍ على الحدِّ، وبِرَغْبَةٍ إلى الخَلْقِ، ويعترِضُ عند انكسارِ الأغراضِ؛ والقَدَرُ يجري ولا يُبالي بِسَخَطٍ، ولا يحصُلُ له إلَّا ما قُدِّرَ، وقد فاتَه القُرْبُ من الحقِّ والمحبةُ له والـتأدبُ معه. فذلك العَيْشُ عَيْشُ البهائمِ.

ooooo

الرضَى عن النفسِ مصيبةٌ عُظْمَى

المصيبةُ العظمى رضَى الإنسانِ عن نفسِهِ واقتناعُه بعلمِهِ!

وهذه محنةٌ قد عمَّتْ أكثرَ الخَلْق:

فترى اليهوديَّ أو النصرانيَّ يرى أنه على الصوابِ، ولا يبحثُ ولا ينظُرُ في دليلِ نبوَّةِ نبيِّنا ﷺ، وإذا سَمِعَ ما يُلَيِّنُ قلبَه مثلَ القرآنِ المعجِزِ؛ هَرَبَ؛ لئلَّا يسمعَ!

وكذلك كلُّ ذي هوًى يَثْبُتُ عليه: إما لأنَّه مذهبُ أبيهِ وأهلِه، أو لأنَّه نَظَرَ نظرًا أولَ فرآه صوابًا، ولم يَنْظُرْ فيما يناقِضُه، ولم يباحثِ العلماءَ ليبيِّنوا له خَطَأَهُ!

ومِن هذا حالُ الخوارجِ على أميرِ المؤمنين عليٍّ ؓ؛ فإنهم استحسنوا ما وَقَعَ لهم، ولم يرجِعوا إلى مَن يعلم، ولما لَقِيَهُم عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، فَبَيَّنَ لهم خطأَهُمْ؛ رَجَعَ عن مذهبِهِ منهم ألفانِ.

وممَّن لم يَرْجِعْ عن هواه ابنُ مُلْجم، فرأى مذهبَه هو الحقَّ، فاستحلَّ قَتْلَ أميرِ المؤمنينَ ؓ، ورآه دِينًا، حتَّى إنه لما قُطِّعَتْ أعضاؤُهُ؛ لم يمانِعْ، فلما طُلِبَ لسانُه لِيُقْطَعَ؛

انزعجَ، وقال: كيفَ أبقى ساعةً في الدُّنيا لا أذكرُ اللهَ؟! ومثلُ هذا ما له دواءٌ.

وكذلك كان الحجَّاجُ يقولُ: واللهِ؛ ما أرجو الخيرَ إلَّا بعد الموتِ! هذا قولُه! وكم قد قَتَلَ مَن لا يحلُّ قتلُه، منهم سعيدُ بن جُبيرٍ.

فينبغي للإنسانِ أن يبالغَ في معرفةِ الدَّليل، ولا يساكنُ شبهتَه، ولا يَثِقُ بعلمِ نفسِهِ.

فنسألُ اللهَ السلامةَ من جميعِ الآفاتِ.

○○○○○

عداوةُ الأقاربِ

عداوةُ الأقاربِ صعبةٌ، وربما دامتْ كحربِ بكرٍ وتغلبَ ابني وائلٍ[(١)]، وعبسٍ، وذبيانَ ابني بغيضٍ، والأوسِ والخزرجِ ابني قَيْلَةَ. قال الجاحظُ: تعدَّتْ هذه الحربُ أربعين عامًا.

والسببُ في هذا أنَّ كلَّ واحدٍ من الأقاربِ يكرهُ أن يفوقَه قريبُه، فيقعُ التحاسدُ.

فينبغي لمن فُضِّلَ على أقاربِهِ أن يتواضَعَ لهم، ويرفعَهم جَهْدَه، ويرفُقَ بهم؛ لعلَّه يَسْلَمُ.

قال رجلٌ لرسولِ الله ﷺ: لي أقاربُ أصِلُهم فيَقْطَعوني؟ فقالَ: «فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ[(٢)]، ولن يزالَ معكَ من الله ظهيرٌ ما دُمْتَ على ذلك»[(٣)].

○○○○○

عبرةُ يومَ العيدِ

رأيتُ الناسَ يومَ العيدِ، فشبهتُ الحالَ بالقيامةِ:

فإنَّهم لما انتبهوا من نومِهم؛ خرجوا إلى عيدِهم كخروجِ الموتَى من قُبورِهم إلى حَشْرِهم.

* فمنهم مَن زينتُهُ الغايةُ، ومركبُهُ النِّهايةُ، ومنهم المتوسِّطُ، ومنهم المرذولُ. وعلى هذا أحوالُ الناسِ يومَ القيامةِ: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي: رُكبانًا.

---

(١) وهي حرب البسوس التي كادت بكر وتغلب أن تفنيا فيها، وقد هاجت بسبب ناقة، فاعجب!

(٢) الملّ: الرماد الحار.

(٣) مسلم (٢٥٥٨).

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥ – ٨٦]؛ أي: عِطَاشًا. وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «يُحْشَرونَ رُكْبانًا ومشاةً وعلى وجوهِهِم»[١].

* ومن الناس مَن يُداسُ في زحمةِ العيدِ، وكذلك الظَّلَمَةُ يطؤُهُمُ الناسُ بأقدامِهم في القيامةِ.

* ومن الناسِ يومَ العيدِ الغنيُّ المتصدِّقُ، كذلك يومَ القيامةِ أهلُ المعروفِ في الدُّنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ.

* ومنهُم الفقيرُ السائلُ الذي يطلُبُ أن يُعطَى، كذلك يومَ الجزاءِ: «أعددتُ شفاعتي لأهلِ الكبائِرِ»[٢].

* ومنهم مَنْ لا يُعْطَفُ عليه؛ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠–١٠١].

والأعلامُ منشورةٌ في العيدِ، كذلك أعلامُ المتقينَ في القيامةِ، والبوقُ يُضْرَبُ كذلك يخبَرُ بحالِ العبدِ، فيقالُ: يا أهلَ الموقفِ! إنَّ فلانًا قد سَعِدَ سعادةً لا شَقَاوةَ بعدَها، وإنَّ فلانًا قد شَقِيَ شقاوةً لا سَعَادةَ بعدَها.

ثم يرجعونَ من العيدِ بالخَواصِّ إلى بابِ الحُجرةِ يُخبِرونَ بامتثالِ الأوامرِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١١]، فيخرُجُ التوقيعُ إليهم: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٢].

ومَن هو دونَهم يختلفُ حالُه: فمنهُم مَن يرجِعُ إلى بيتٍ عامرٍ؛ ﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ومنهم متوسِّطٌ، ومنهم من يعودُ إلى بيتٍ قَفْرٍ.

﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

○○○○○

في أمثلةِ الآدميِّ

إنَّ الله عزَّ وجلَّ جَعَلَ لأحوال الآدميِّ أمثلةً ليعتبرَ بها:

فمن أمثلةِ أحوالِهِ: القمرُ، الذي يَبْتَدِئُ صغيرًا، ثم يَتَكَامَلُ بدرًا، ثم يتناقصُ بانمحاقٍ[٣]، وقد يَطْرَأ عليه ما يُفْسِدُهُ كالكُسوفِ؛ فكذلك الآدميُّ أولُه نطفةٌ، ثم يترقَّى

---

(١) أحمد (٨٥٣٧)؛ والترمذي (٣١٤٢).

(٢) أحمد (١٢٨١٠)؛ وأبوداود (٤٧٣٩)؛ والترمذي (٢٤٣٦)؛ وابن ماجه (٤٣١٠).

(٣) بانمحاق: أي زاد نقصه حتى ما يكاد يرى.

من الفسادِ إلى الصَّلاحِ؛ فإذا تَمَّ؛ كان بمنزلةِ البَدْرِ الكاملِ، ثم تتناقصُ أحوالُه بالضَّعْفِ، فربما هَجَمَ الموتُ قبل ذلك هجومَ الكسوفِ على القمرِ.

قال الشاعرُ:

والمَرْءُ مِثْلُ هلالٍ عندَ طَلْعَتِهِ ... يَبْدو ضئيلًا لَطِيفًا ثم يَتَّسِقُ

يَزْدادُ حتَّى إذا ما تَمَّ أعْقَبَهُ ... كَرُّ الجَديدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمحِقُ

ومن أمثلةِ حالِهِ دودُ القَزِّ؛ فإنه يكونُ حبًّا[١] إلى أنْ يبتدئَ نباتُ قوتِهِ، وهو وَرَقُ الفِرْصَادِ[٢]؛ فإذا اخضرَّ الورقُ؛ دبّتِ الرُّوحُ فيه، ثم ينتقلُ من حالٍ إلى حالٍ كانتقالِ الطِّفْلِ، ثم يرقُدُ كغفلةِ الآدميِّ عن النَّظَرِ في العواقبِ، ثم ينتبهُ فيحْرِصُ على الأكلِ كحِرْصِ الشَّرِهِ على تحصيلِ الدُّنيا، ثم يُسْدِي[٣] على نفسِهِ كما يَحْطِبُ الآدميُّ الأوزارَ على دينِهِ، فيُرتَهَنُ في ذلك الحبسِ كما يُرتَهَنُ الميتُ في قبرِهِ، ثم يَقْرُضُ فيخرجُ خلقًا آخرَ كما تُنْشَرُ الموتى غُرْلًا[٤] بُهمًا[٥].

وقد دَلَّه على البعثِ؛ تَكَوُّنُ النطفةُ كمَيْتٍ ثم تصيرُ آدميًّا، وإلقاءُ الحبِّ تحت الأرضِ فيفسُدُ ثم يهتزُّ خَضِرًا.

إذا المَرْءُ كانَتْ لهُ فِكْرَةٌ ... ففي كلِّ شيءٍ لَهُ عِبْرَة

○○○○○

من أخبارِ السلفِ في اغتنامِ الوقتِ

رأيتُ العاداتِ قد غلبتِ الناسَ في تضييعِ الزَّمانِ، وكان القدماءُ يُحذِّرونَ من ذلك:

قال الفضيلُ: أعرِفُ من يُعَدُّ كلامُه من الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ.

ودخلوا على رجلٍ من السَّلَفِ، فقالوا: لعلَّنا شَغَلْناك؟ فقالَ: أصدُقُكم؛ كنتُ

---

(١) حبًّا: أي بيضًا.

(٢) الفرصاد: التوت.

(٣) يسدي: يغزل.

(٤) غرلًا: غير مختونين.

(٥) بهمًا: سالمين عن الآفات والأمراض.

أقرأُ، فتركتُ القراءةَ لأجْلِكُمْ.

وجاء رجلٌ من المتعبِّدينَ إلى سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، فرأى عندَه جماعةٌ، فقال: صِرْتَ مُناخَ البطَّالينَ؟ ثم مضى ولم يجلِسْ.

ومتى لان المَزُورُ؛ طَمِعَ فيه الزائرُ، فأطالَ الجلوسَ، فلم يَسْلَمْ من أذىً.

وقد كانَ جماعةٌ قعودًا عند معروفٍ، فأطالوا، فقالَ: إن مَلَكَ الشمسِ لا يَفْتُرُ في سَوْقِها؛ أفما تريدونَ القيامَ؟!

وممَّن كان يَحْفَظُ اللَّحَظاتِ عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ؛ قالَ له رجلٌ: قِفْ أكلِّمَكَ. قال: فأمسكِ الشمسَ.

وكان داوودُ الطائيُّ يَسْتَفُّ الفَتِيْتَ، ويقولُ: بين سَفِّ الفَتِيْتِ وأكل الخبزِ قراءةُ خمسينَ آيةً.

وأوصى بعضُ السَّلفِ أصحابَه، فقال: إذا خرجْتُم من عندي؛ فتفرَّقوا؛ لعلَّ أحدَكم يقرأ القرآنَ في طريقِهِ، ومتى اجتمعتُم؛ تحدَّثْتُم.

واعلم أنَّ الزمانَ أشرفُ من أن يضيَّعَ منه لحظةٌ؛ فإن في الحديثِ الصحيحِ عن رسولِ الله ﷺ: أنه قال: «**مَن قالَ: سبحانَ الله العظيمِ وبحمدِه؛ غُرِسَتْ له بها نخلَةٌ في الجنةِ**»[(١)]؛ فكم يُضَيِّعُ الآدميُّ من ساعاتٍ يفوتُه فيها الثوابُ الجزيلُ!

وهذه الأيامُ مثلُ المزرعةِ؛ فكأنه قيلَ للإنسان: كلَّما بَذَرْتَ حبَّةً؛ أخرجْنا لك ألفَ كُرٍّ[(٢)]؛ فهل يجوزُ للعاقل أن يتوقَّفَ في البَذْرِ ويَتَوانَى؟!

والذي يعينُ على اغتنام الزَّمانِ: الانفرادُ والعزلةُ مهما أمكنَ، والاختِصَارُ على السلامِ أو حاجةٍ مهمةٍ لمن يَلْقَى، وقلةُ الأكلِ؛ فإنَّ كَثْرَتَهُ سببُ النومِ الطويلِ وضياعِ الليلِ.

ومَنْ نَظَرَ في سِيَرِ السلفِ وآمنَ بالجزاءِ؛ بانَ له ما ذكرتُهُ.

○○○○○

---

(١) الترمذي (٣٤٦٤).

(٢) الكُرّ: مكيال عراقي يساوي أربعين إردبًا.

نصائح للأزواجِ والزوجاتِ

ينبغي للعاقل أن يتخيَّرَ امرأةً صالحةً، من بيتٍ صالح، يغلبُ عليه الفقرُ؛ لترى ما يأتيها به كثيرًا!

ولْيَتَزَوَّجْ مَن يقاربُه في السنِّ؛ فأما الشيخُ؛ فإنَّه إذا تزوَّجَ صبيةً؛ آذاها، وربما فَجَرَتْ، أو قتلتْهُ، أو طلبتِ الطلاقَ وهو يحبُّها، فيتأذَّى، ولْيتمِّمْ نقصَه بحُسْنِ الأخلاقِ وكَثرةِ النفقةِ.

ولا ينبغي للمرأة أن تَقْرَبَ من زوجِها كثيرًا؛ فَتُمَلَّ، ولا تَبْعُدَ عنه؛ فينساها، ولْتكنْ وقتَ قُرْبِها إليه كاملةَ النظافةِ متحسنةً.

ولْتحذرْ أن يَرَى فَرْجَها أو جسمَها كلَّه؛ فإنَّ جسمَ الإنسانِ ليس بمستَحْسَنٍ! وكذلك ينبغي له أن لا يُرِيَها جسمَه، وإنما الجماعُ في الفراشِ.

ورأى كِسرى يومًا كيف يُسْلَخُ الحيوانُ ويُطْبَخُ، فتقلَّبَتْ نفسُه، ونفى اللحمَ، فَذَكَرَ ذلك لوزيرِهِ، فقال: أيُّها الملكُ! الطبيخُ على المائدةِ، والمرأةُ في الفراشِ. ومعناه: لا تفتِّشْ عن ذلك.

وهذا الحزمُ، وبذلك لا يَعيبُ الرجلُ المرأةَ؛ لأنَّه لم يَرَ عيوبَها.

ومن الناسِ من يستهينُ بهذه الأشياء، فيرى المرأةَ متبذِّلةً؛ تقولُ: هذا أبو أولادي! ويتبذَّلُ هو! فيرى كلُّ واحدٍ من الآخرِ ما لا يَشْتَهي، فينفِرُ القلبُ، وتبقى المعاشرةُ بغيرِ محبَّةٍ.

وهذا فصلٌ ينبغي تأمُّلُه والعملُ به؛ فإنَّه أصلٌ عظيمٌ.

○○○○○

التدبيرُ نصفُ المعيشةِ

العاقلُ يدبِّرُ بعقلِهِ عيشتَهُ في الدُّنيا:

فإن كانَ فقيرًا؛ اجتهدَ في كسبٍ وصناعةٍ تكفُّه عن الذُّلِّ للخَلْقِ، وقلَّلَ العلائِقَ، واستعملَ القناعةَ؛ فعاش سليمًا من مِنَنِ الناس عزيزًا بينَهم.

وإن كان غَنِيًّا؛ فينبغي له أن يدبِّرَ في نفقتِهِ؛ خوفَ أن يَفْتَقِرَ، فيحتاجَ إلى الذُّلِّ للخَلْقِ، ومن البلية أن يُبَذِّرَ في النفقةِ، ويباهيَ بها لِيُكْمِدَ الأعداءَ، كأنه يتعرَّضُ بذلك —

إن أكثرَ – لإصابتِهِ بالعينِ! وينبغي التوسُّطُ في الأحوالِ وكتمانُ ما يَصْلُحُ كتمانُه.

ولقد وجدَ بعضُ الغسَّالينَ مالًا، فأكْثَرَ في النفقةِ، فعُلِمَ به، فأُخِذَ منه المالُ، وعاد إلى الفقرِ.

وإنما التدبيرُ حفظُ المالِ، والتوسُّطُ في الإنفاقِ، وكتمانُ ما لا يَصْلُحُ إظهارُه.

ومن الغلطِ إطْلاعُ الزوجةِ على قَدْرِ المالِ؛ فإنَّه إنْ كانَ قليلًا؛ هانَ عندها الزوجُ، وإنْ كانَ كثيرًا؛ طلبتْ زيادةَ الكِسْوَةِ والحُلِيّ! قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: ٥]. وكذلك الولدُ.

وكذلك الأسرارُ؛ ينبغي أن تُحْفَظَ، وأن يُحْذَرَ منها، ومن الصَّدِيقِ؛ فربَّما انقلبَ؛ فقد قال الشاعرُ:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... واحْذَرْ صَديقَكَ ألْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّما انْقَلَبَ الصَّدِيقُ ... فَكانَ أعْلَمَ بِالمَضَرَّهْ

○○○○○

الفهـرس